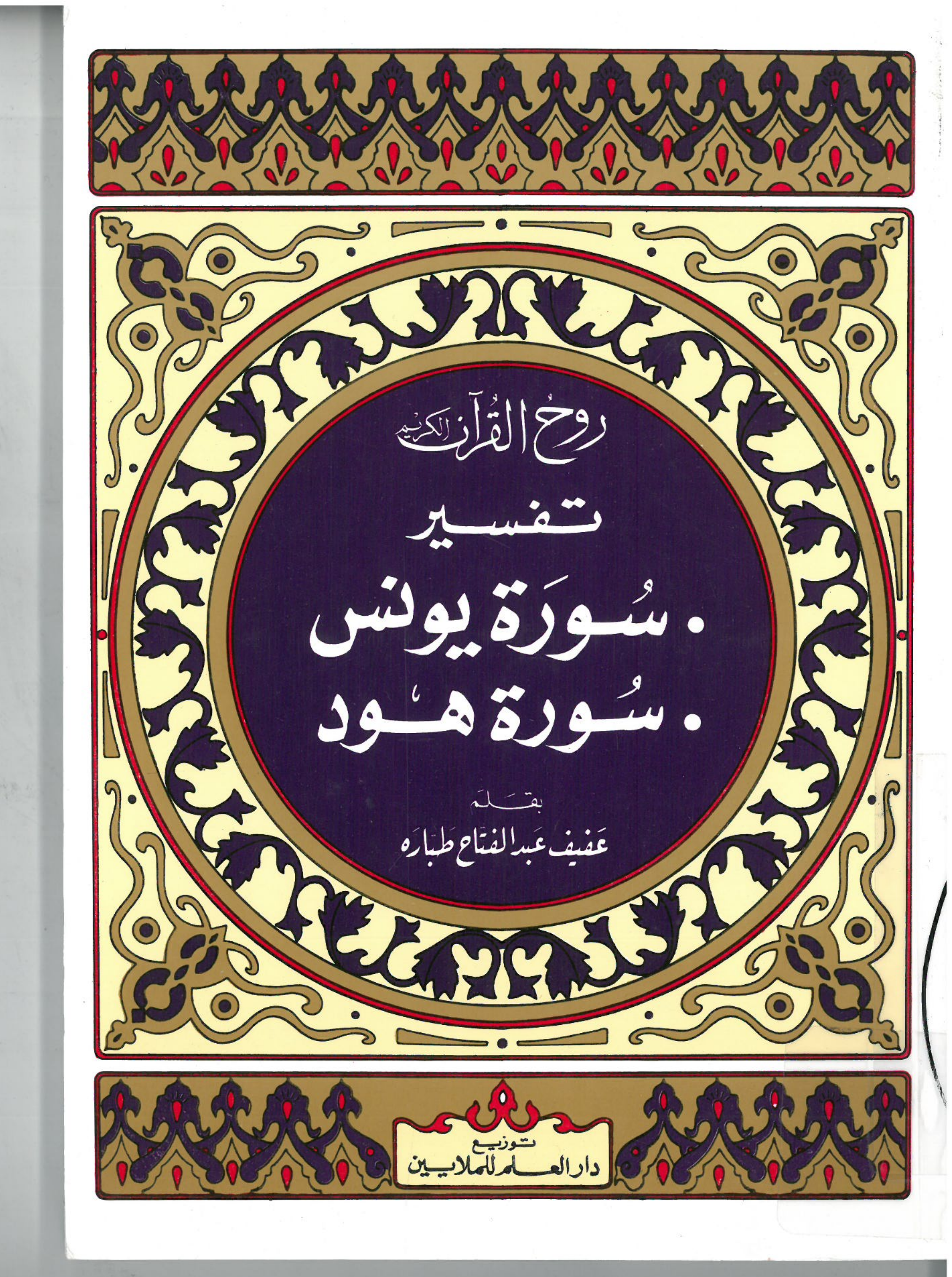


روح القرآن الكريم
تفسير
• سُورَة يونس
• سُورة هود
بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره
توزيع
دار العلم للملايين

قالَ رسُولُ اللّهِ مُحمَّدٌ ﷺ:

إنَّ أفضلكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه

روح القرآن

تفسير

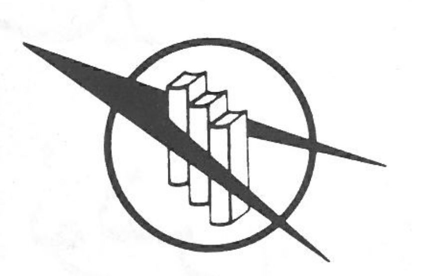
سُورَةُ يُونُسَ
و
سُورَةُ هُودٍ

بقلم
عفيف عبد الفتاح طبّاره

دار العلم للملايين

مؤسّسة ثقافيّة للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com



الطبعة الأولى
حزيران / يونيو ٢٠٠٠

تعريف بسورة يونس

هذه السورة مكية أي نزلت بمكة وسميت بسورة يونس لأنها انفردت بذكر ما خص الله قَوم يونس برفع العذاب عنهم الذي كاد يصيبهم بعد أن آمنوا بالله وتابوا إليه.

افتتحت هذه السورة بوصف القرآن بأنه الكتاب الحكيم وأنه لا عجب أن ينزل الله الوحي على رجل من البشر ـ وهو محمد ﷺ ـ لينذرهم بالعقوبة إن كفروا بالله وعصوه، ويبشِّرهم بالمثوبة والرحمة إن آمنوا بالله وأطاعوه. ثم أعقب ذلك بأن الله أبدع السموات والأرض في ستة أيام وأنه لا شفيع عنده إلاّ بإذنه وأن المرجع إليه بعد الموت. كما تذكر السورة هلاك الأمم السابقة بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسل الله، وحسن عاقبة المتقين.

وتبين السورة فضل الله على الناس بتسييرهم في البر والبحر وأنهم حين تحيط بهم أسباب الهلاك في البحر يدعونه وحده لينقذهم من الأخطار التي تحدق بهم فإذا أنقذهم عادوا إلى بغيهم في الأرض. كما تصور السورة مثلاً للحياة الدنيا وأن متاعها سريع الزوال فهي كالأرض المخضرة التي أصاب زرعها اليبس والجفاف فجأة فصارت حصيداً كأن لم تكن قائمة من قبل.

كما تتحدث السورة عن إثبات وجود الله ووحدانيته عن طريق آثار صنعه في الكون التي تدل على عظمته وحكمته.

وتتحدى السورة المشركين بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن وتعلن عجزهم عن ذلك وهذا ما تحقق فعلاً إلى الآن.

كما تتناول السورة بإيجاز بعض قصص الأنبياء كقصة نوح عليه السلام وقصة موسى عليه السلام مع فرعون وهلاكه وبقاء جثته إلى اليوم ليكون عبرة لمن يأتي بعده من الأمم وقد اكتشفت جثته حديثاً وهي تُعرض في المتحف المصري.

هذا بعض ما تناولته السورة وهناك مواضيع أخرى يراها القارىء أثناء مطالعته هذا التفسير.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾

شرح المفردات

أنـذر الناس: حذِّرهم من مغبّـة الكفر.

قَـدَم صِدْق: سابقة فضل ومنزلة رفيعة عند ربهم أو أجراً حسناً.

لساحر مبين: لساحر واضح السحر ظاهره.

إنذار وبشارة

يستهل الله تعالى هذه السورة بالتنويه بآيات القرآن الكريم:

﴿الٓر[1] تِـلْـكَ آيَاتُ الْـكِـتَـابِ الْـحَـكِيمِ﴾ الكتاب هنا المراد به القرآن،

(١) هذه الأحرف التي جاءت في مطالع بعض سور القرآن قيل في تفسيرها أقوال شتى، منها أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله. وقيل: إنها قسم أقسم الله بها وهي من أسماء الله. وقيل: هي أسماء للقرآن أو أسماء للسور. وقيل: إن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه ويكون تعجبهم منه سبباً لاستماعهم، وسماعهم له سبباً لاستماع ما بعده. وقيل إنها بيان لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته مع أنه مركب من حروف لغتهم التي يتكلمون بها. والدليل على ذلك أن كل سورة افتتحت بهذه الحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه.

والمعنى: تلك الآيات الرفيعة الشأن التي تألفت منها هذه السورة أو القرآن كله هي آيات مشتملة على الحكمة، والحكمة هي إصابة الحق بالعلم والعقل.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَـا إِلَى رَجُلٍ مِنْـهُمْ﴾ الهمزة في (أكان) للاستفهام وإنكار تعجبهم، والمراد بالناس كفار مكة. والمعنى: هل بلغ الجهل وسوء الفهم بكفار مكة أن كان إنزال الله الوحي على رجل منهم يعرفونه بصدقه وسيرته الحسنة لكي يبلغهم الدين الحق، هل كان هذا الأمر مثار عجب، ولكن لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة حيث خص بعض البشر بالوحي واصطفاهم على من سواهم لهداية قومهم ومنهم رسوله محمد ﷺ.

ومدار العجب عند كفار مكة أن يكون رسول الله إليهم من البشر كقولهم بما حكاه الله عنهم ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. فرسول الله في نظرهم يجب أن يكون من الملائكة لا من البشر.

وكان من الأمور التي أوحاها الله إلى رسوله محمد ﷺ: ﴿أَنْ أَنْـذِرِ النَّاسَ﴾ أي أنذر الناس وخوّفهم من عقاب الله إذا ساروا في طريق الشر وعصيان الله ﴿وَبَشِّرِ الَّذِيـنَ آمَنُـوا أَنَّ لَـهُمْ قَـدَمَ صِدْقٍ[1] عِـنْـدَ رَبِّـهِمْ﴾ وبشِّر - أيها الرسول - الذين آمنوا بالله وأطاعوه بما يسرّهم بأن لهم سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة عند ربهم، وأجراً حسناً، بما قدّموا مِن صَالح الأعمال، وإضافة المنزلة الرفيعة إلى الصدق (قدم صدق) للدلالة على تحققها ﴿قَـالَ الْكَافِـرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِـرٌ مُبِينٌ﴾ أي قال الكافرون المتعجبون أن يكون محمد رسولاً من الله إليهم: إن هذا الإنسان الذي يدّعي النبوة لساحر بيّن السحر

(١) (قدم صدق) القدم: السابقة، أي سبق لهم عند الله خير. وقيل: القدم كل ما قدمت من خير. وقيل: القدم كناية عن العمل الذي يتقدم فيه ولا يقع فيه تأخير ولا إبطاء. والسبب في إطلاق لفظ (القدم) على هذه المعاني لأن بها يحصل السبق والوصول إلى المنازل الرفيعة، كما يعبر عن النعمة باليد لأنها تعطى بها.

واضحه، حيث إنه استطاع بقوة تأثيره أن يجذب الناس إلى دين الإسلام، وهناك قراءة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي إن هذا القرآن لسحر واضح. وقولهم هذا يتضمن اعترافاً منهم بأن القرآن هو فوق المتعارف والمعلوم عندهم لما له من تأثير في القلوب، فهو يسحر العقول بأسلوبه ومعانيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

شرح المفردات

استوى على العرش: استولى أو استقر بلا كيف، وعرش الله من الأمور الغيبية.

يُدبِّر الأمر: يقدّر الله شؤون جميع الكائنات على وفق الحكمة.

تذكّرون: تتدبرون وتستحضرون (أصلها تتذكرون) حذفت إحدى التائين تخفيفاً.

بالقسط: بالعدل.

شراب من حميم: ماء بالغ غاية الحرارة.

وقدّره منازل: صيّر القمر ذا منازل يسير فيها.

اختلاف الليل والنهار: تعاقبهما.

آيات: علامات على قدرة الله.

يتّقون: يخافون الله ويجتنبون ما نهاهم عنه.

عظمة القدرة الإلهية

ويتابع القرآن فيذكر في الآيات التالية عظمة قدرة الله سبحانه:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الذي خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّام﴾ اليوم يطلق تارة على النهار الواحد، أو على الليل والنهار معاً، أي أن الله خلق السماوات والأرض في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا لأنه تعريف لنا بما نعرفه، مع قدرته على خلقهما دفعة واحدة وفي أقل من لمح البصر. وقد يراد باليوم الوقت مطلقا، أي أن الله خلق الكون في ستة أطوار من الزمن هي في علم الله وحده ولا يمكن تحديدها، وفي القران أن أيام الله ليست كأيامنا كقوله تعالى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ واستواء الله على العرش هو صفة لله نؤمن بها بلا كيف ولا تشبيه ولا تمثيل، فيجب الإيمان باستواء الله كما وردت، ونفوض العلم بحقيقتها إلى الله سبحانه.

ويمكن أن يُفسَّرَ الاستواء بالنسبة إلى الله بأنه كناية عن القهر والعظمة والغلبة وسلطان الله في الكون، وعرش الله لا يعلمه البشر إلا بالاسم ولا يعرفون شيئاً عن حقيقته. ويتابع القرآن قوله: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أي أن الله سبحانه يدبر أمر مخلوقاته تدبيراً محكماً، وعبّر القرآن عن التدبير بصيغة فعل المضارع الذي يفيد الحاضر والمستقبل، إشارة إلى استمرارية تدبير الله سبحانه لمخلوقاته ولهذا الكون.

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ هنا يردُّ الله على مشركي العرب الذين كانوا

يدّعون أن أصنامهم تشفع لهم عند الله، وهذا ما نراه أيضاً عند بعض أتباع الأديان الأخرى حيث يسبغون صفة القداسة على بعض الناس: الأموات منهم والأحياء ويزعمون أن هؤلاء يشفعون لهم عند الله غير عابئين بأعمالهم السيئة، فردّ الله على مزاعمهم بأنه لا يوجد شفيع يشفع لأحد عند الله إلا من بعد إذنه ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم فَاعْبُدُوهُ﴾ أي ذلك هو الله الموصوف بخلق السماوات والأرض والتصرف في شؤون خلقه هو ربكم فأخلصوا له الطاعة والعبادة ولا تشركوا بعبادته أحداً ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتدبّرون وتستحضرون في أذهانكم الدلائل والآيات التي تدل على وحدانية الله وعظمته، وأن بيده النفع والضر؟

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي إلى الله وحده تُرجعون جميعاً بعد الموت لمجازاتكم على أعمالكم، وقد وَعَدَ الله عباده بذلك وعداً صادقاً وهو لا يخلف وعده ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي أن الله يخلق الناس ابتداء ثم يميتهم ثم يحييهم مرة ثانية يوم القيامة. فأما بدؤه سبحانه خلق الإنسان والكائنات فهو حقيقة مشاهدة لأن الناس كانوا عدماً ثم أوجدهم، وأما إعادة الناس أحياء بعد الموت فهي هيّنة على الله لأن القادر على البدء قادر على الإعادة، وقد وصف القرآن قدرة الله سبحانه بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم بيّن القرآن الحكمة من إعادة الإنسان حيًا بعد الموت يوم القيامة: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي ليثيب الله المؤمنين المطيعين له بما أمرهم به من الأعمال الحسنة بعدله التام ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ والذين كفروا بالله ورسله وعملوا سيىء الأعمال لهم شراب من ماء شديد الحرارة ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ولهم مع ذلك عذاب موجع بسبب كفرهم.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ أي أن الله هو الذي جعل

الشمس ذات نور قويّ ساطع يصدر من ذاتها وهذا ما ذكره القرآن في سورة نوح ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]. والسراج هو المصباح الذي ينبعث نوره من ذاته، كما جعل الله القمر منيراً إذ يعكس نور الشمس، والنور هو تموّجات مغنطيسية تمكّن من رؤية الأشياء ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ منازل: جمع منزل وهو مكان النزول، أي جعل الله للقمر منازل ينتقل فيها وهو يدور حول الأرض وهو يظهر في كل ليلة من الشهر على شكل يختلف عن الليلة السابقة ولمّا كان القمر جسماً معتماً ويعكس سطحه الأشعة الشمسية الساقطة عليه لذلك فإن الناظر إليه من الأرض يشاهده أثناء دورانه بأشكال مختلفة بحسب حجم الأجزاء المنيرة من سطحه التي تعرف باسم أوجه القمر. وتستغرق دورة القمر الكاملة حول الأرض نحو تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم. ثم قال سبحانه ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ﴾ أي جعل الله للقمر هذه المنازل التي ينزل بها والأشكال التي يظهر بها لنعلم عدد السنين وحساب الأوقات من الشهور والأيام ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي ما خلق الله ذلك إلا ملابساً للحق مراعياً لمقتضى حكمته البالغة في منفعة العباد ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يوضّح الله البراهين والعلامات الدالة على قدرته وحكمته لقوم يعلمون أسرار ما خلق الله، فيطيعونه ويشكرونه على نِعَمِه التي لا تُحصى.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ أي إن في تعاقب الليل والنهار واختلافهما بالزيادة والنقصان ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمٰوات وَالأَرْضِ﴾ أي وما خلق الله في السموات من نجوم وكواكب، وما خلق في الأرض من كائنات حيوانية ونباتية وجبال وبحار ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ لأدلة واضحة على وجود الخالق وقدرته ووحدانيته لقوم يتقونه سبحانه فيطيعونه في أمره ونهيه ويحذرون عقابه.

هذه الشمس وما تعطيه من طاقة وحرارة لنمو النبات وحياة الإنسان وسائر الحيوانات، وهذا القمر الذي يظهر على أشكال متفاوتة لنهتدي بها إلى حساب الأشهر والسنين وهذا الليل والنهار اللذان يحصلان من دوران الأرض حول نفسها، وهذا

الكون بسمائه وأرضه هو من فعل القدرة الإلهية الحكيمة؛ فعلى الإنسان أن يتذكر ذلك على الدوام ويخص الله سبحانه بالشكر والثناء على نعمه الجليلة.

أما ما يدّعيه الماديون من أن الكون خُلِق صدفة وعبر تطورات ملايين السنين فهو زعم يقوم على الوهم، ويناقض أبسط مبادىء العقل التي تقول بأن لكل صنعة صانعاً. ولنأخذ مثلاً الساعة أو جهاز التلفزة فإنهما لم يحصلا صدفة بل هناك صانع لكل منهما، وإذا ادعى أحد أنهما وجدا صدفة اتهمناه في عقله، فما بالك بهذا الكون العظيم القائم على منتهى الحكمة؟

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ (٧) أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٩) دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٠) ﴾

شرح المفردات

لا يرجون لقاءنا: لا يتوقعون لقاء الله للحساب والثواب والعقاب لإنكارهم البعث.

اطمأنوا بها: فرحوا وسكنوا إليها دون اهتمام بأوامر الله.

مأواهم: مسكنهم ومقرهم.

يكسبون: يعملون السوء.

دعواهم فيها سبحانك اللّهم: دعاؤهم أو عبادتهم في الجنة التسبيح والتنزيه لله تعالى.

مصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة

وبعد أن بيّن القرآن قدرة الله على إعادة الإنسان حيًّا يوم القيامة شرع بعد ذلك في بيان أحوال من يكفر بالمعاد، ومن يؤمن به:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ الرجاء: الأمل وتوقع ما فيه خير ونفع، وتستعمل كلمة الرجاء أيضاً بمعنى الخوف. والمعنى: إن الذين لا يخافون عقاب الله على أعمالهم السيئة، ولا يأملون بحصول الثواب منه على أعمالهم الحسنة، لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا واطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ أي رضوا بالحياة الدنيا معتقدين أن لا حياة بعدها فكل همهم محصور بالتمتع بلذاتها وشهواتها، وسكنت أنفسهم إلى الدنيا غير مبالين بما يصدر عنهم من أعمال سيئة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا[1] غَافِلُونَ﴾ أي ومن صفاتهم أنهم غافلون عن آيات القرآن وما فيها من المواعظ والمعارف والحكم، أو غافلون عن آيات الله الكونية وما تدل على وحدانيته وحكمته وقدرته ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي هؤلاء الذين هذه صفتهم: مسكنهم ومقرّهم في الآخرة نار جهنم بما اقترفوا من المعاصي والسيئات.

﴿إِنَّ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي إن الذين آمنوا بوجود الله ووحدانيته، وعملوا صالح الأعمال التي أمرهم الله بها قاصدين بها وجه الكريم ﴿يَهْدِيهِم رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ يرشدهم الله إلى ما فيه خيرهم بسبب إيمانهم، ويجعل لهم نوراً يسلكون به طريق الله المستقيم الذي يوصلهم إلى الجنة في الآخرة. هذه الآية فيها بشرى للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بما ينتظرهم من خير عميم، حيث ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي تجري من تحت قصورهم الأنهار في جنات النعيم ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ دعواهم: بمعنى الدعاء، أي دعاؤهم في الجنة: سبحانك اللهم، أي تنزيهاً لك يا رب عن كل سوء ونقيصة، ويجوز أن

(١) آياتنا: الأدلة والحجج التي ذكرها الله لعباده وتأتي بمعنى آيات القرآن.

تكون كلمة (دعواهم) بمعنى العبادة، أي إن عبادة أهل الجنة هي أن يسبحوا الله ويحمدوه ﴿وتحيتهم فيها سلام﴾ أي يُحيّوْن بالسلام في الجنة ولفظ السلام يدل على الأمن والطمأنينة والسلامة من كل مكروه وهذه التحية تكون من الله للمؤمنين، وتكون من الملائكة لهم، كما تكون من المؤمنين يتبادلونها فيما بينهم ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ وختام دعائهم دائماً الحمد لله على توفيقه إياهم بالإيمان وظفرهم برضوان الله وبما أسبغ عليهم من النعيم.

﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴿١١﴾ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴿١٢﴾ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين ﴿١٣﴾ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴿١٤﴾ ﴾

شرح المفردات

لقضي إليهم أجلهم: لأُهلكوا وأبيدوا.

فنذر: فنترك.

طغيانهم: تجاوزهم الحد في الكفر والظلم.

يعمهون: يترددون ويتحيّرون.

مسّ الإنسان الضر: أصابه البلاء والشدة.

دعانا لجنبه: استغاث بنا وهو مضطجع على جنبه.

زُيِّن: حُسِّن.

للمسرفين: المفرطين في العصيان.

أهلكنا القرون: أهلكنا الأمم الماضية.

بالبينات: بالحجج الواضحة.

خلائف: جمع خليفة وهو كل من يخلف غيره ويقوم مقامه.

سنّة الله في استجابة الدعاء

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن المشركين الذين كانوا يستعجلون نزول العذاب بهم الذي توعّدهم به رسول الله ﷺ:

﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير﴾ أي ولو يعجّل الله للناس إجابة دعائهم في الشر بما فيه مضرة لهم ومكروه كما يعجّل إجابة دعائهم في طلب الخير ﴿لقضي إليهم أجلهم﴾ لهلكوا وعُجّل لهم الموت.

وقد كان بعض المشركين يدعون على أنفسهم بالهلاك ومجيء العذاب الذي توعّدهم به رسول الله تكذيباً وتحدّياً واستهزاء، وقد حكى الله بعض أقوالهم في ذلك:

﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ [العنكبوت: ٥٣].

ويندرج في هذا المعنى دعاء الرجل بالشرّ على نفسه أو على ولده عند الغضب أو عند مصيبة ما، ولهذا يقول النبي ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود.

فالله سبحانه يستجيب للداعي بالخير ولا يعجل باستجابة الدعاء للإنسان إذا دعا على نفسه بالشر، لأنه سبحانه أقام نظام الحياة على الرحمة والرفق بالمخلوقات لطفاً منه، وإن الذين يستحقون الشر لو عُجِّل لم ما استحقوه من العقاب لبطل النظام الذي وضعه للناس وفي هذا يقول الله تعالى: **﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾** [فاطر: ٤٥].

فالله قد لا يعجل لقوم الهلاك بسبب معاصيهم وكفرهم إذ لا حكمة بإهلاكهم عاجلاً فربما آمنوا بعد ذلك، أو ربما خرج من نسلهم من يكون مؤمناً، وهذا ما تحقق مع كفار مكة، فقد كفر العديد من الآباء وأسلم أبناؤهم.

ثم يقول سبحانه: **﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا في طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ﴾** أي فنترك الذين لا يتوقعون لقاءنا يوم البعث لإنكارهم له، نتركهم وهم على ما هم عليه من مجاوزة الحد في الكفر والظلم، يترددون حيارى في ضلالهم لا يهتدون إلى الصواب.

ثم يبيّن الله طبيعة الإنسان عندما يُصاب بالضرّ:

﴿وإذا مَسَّ الإنْسَانَ الضُّرُّ﴾ والضر لفظ عام يشمل كل الأمراض والرزايا في النفس والمال والأحبة، أي وإذا أصاب الإنسان أي ضرر من ذلك **﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أوْ قَاعِداً أو قَائِماً﴾** أي دعا الله لكشف ما به من ضر في حال اضطجاعه على جنبه، أو في حال قعوده أو في حال قيامه، وخُصَّت هذه المظاهر بالذكر لأنها أغلب الأحوال التي يكون عليها الإنسان عادة، ويجوز أن يُراد أنه يدعو حال كونه مضطجعاً غير قادر على القعود بسبب مرضه الشديد، أو قاعداً غير قادر على القيام، أو قائماً، إنها الفطرة الإنسانية التي أودعها الله في قلوب الناس حيث يلجأون إليه وحده عند إصابتهم بالضرّ.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كأن لَمْ يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ أي فإذا أزال الله

عن الإنسان شدته ورفع عنه بلاءه استمر في بُعْدِهِ عن طاعة الله ونسي ما كان عليه من البلاء وكأنه ما دعا الله من قبل. والتعبير بلفظ (مَرّ) يمثل أدق تصوير لطبيعة الإنسان الذي يدعو الله عند البلاء فإذا ما زال البلاء عنه مرّ واندفع في تيار الحياة لا يتوقف ليعتبر **﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** أي مثل هذا الإعراض عن طاعة الله حسّن الشيطان لهؤلاء المسرفين ما كانوا يعملون من المعاصي والمنكرات، وسماهم الله مسرفين لأن المسرف هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس أو التافه، ومعلوم أن شهوات الدنيا خسيسة في مقابل سعادة الآخرة، فمن استغرق في شهوات الدنيا ولم يعمل للآخرة كان كمن أنفق أشياء ثمينة ليفوز بأشياء حقيرة وهي متاع الدنيا الزائلة.

ويستفاد من الآية الكريمة ذمّ الذين يتركون دعاء الله وعبادته في الرخاء ويتضرعون إليه فقط عند نزول البلاء، وفي الحديث الشريف يقول النبي ﷺ «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»[1].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القُرُونَ مِنْ قَبْلِكُم لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي ولقد أهلك الله الأمم قبلكم يا أهل مكة مثل قوم نوح وعاد وفرعون وغيرهم حين ظلموا بتماديهم في الكفر والضلال، والخطاب في هذه الآية يشمل كل أمة ظالمة في أي عصر من العصور **﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾** أي والحال أن الأمم السابقة التي أهلكها الله جاءتهم رسل الله بالحجج الواضحة الدالة على أنهم مُرسلون من عند الله ولكن هؤلاء الأقوام ما كانوا ليؤمنوا لفساد جبلّتهم وخذلان الله لهم **﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ المُجْرِمِينَ﴾** أي ومثل ذلك الجزاء الأليم الذي حل بالمجرمين من الأمم السابقة قد نجزي بعدهم كل قوم أجرموا وكفروا بما أسبغنا عليهم من نِعَمٍ.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُم خَلائِفَ في الأرْضِ مِنْ بَعْدِهِم﴾ أي ثم جعلناكم يا أمة محمد خلفاء في الأرض بعد أن أهلكنا مكذّبي رسلنا من الأمم قبلكم **﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ**

(١) أخرجه الإمام أحمد.

﴿تَعْمَلُونَ﴾ لنعلم أي عمل يقع منكم خيراً كان أم شرًّا مع علمنا أزلاً بما سيكون منكم، ونعاملكم معاملة المختبِر لكم فنجازيكم على ما يصدر منكم. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الله إنما جعلنا خلفاء لينظر كيف عملنا فأروا الله حسن أعمالكم في السر والعلانية.

فالله سبحانه يبشر أمة محمد بأنها ستخلف الأمم السابقة في الملك والسلطان إن هي آمنت بالله واتبعت النور الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، كما أكد ذلك في موضع آخر من القرآن: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]. ولقد صدق الله وعده فملّك الله المسلمين ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة وكثيراً من الأمم الأخرى.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

شرح المفردات

تُتلى: تُقرأ.

آياتنا بيّنات: آيات القرآن الواضحات.

تلقاء نفسي: من جهة نفسي ومن عندي.

ولا أدراكم به: ولا أعلمكم الله بالقرآن على لساني.

افترى: اختلق.

لا يفلح: لا يفوز.

البراهين الدالة على صدق نبوة محمد ﷺ

ويتابع القرآن فيذكر ما اقترحه المشركون على رسول الله من تغيير القرآن أو تبديل في آياته، قال تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا بيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن واضحة في دلالتها على وحدانية الله وبطلان عبادة الأصنام ﴿قَالَ الَّذِين لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هَذَا أَو بَدِّلْهُ﴾ أي قال الذين لا يصدّقون بالبعث ولا يخافون عذاب الله إن عصوه، ولا يرجون ثوابه إن أطاعوه، قال هؤلاء المكذبون: أحضر لنا يا محمد قرآناً غير هذا القرآن أو بدّل في آياته فاجعل الحرام حلالاً، والحلال حراماً، وهم قد طلبوا حذف الآيات التي تهزأ بالأصنام وتذم عابديها، وكذلك الآيات التي تتوعّد المشركين بسوء المصير يوم القيامة ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لي أن أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسي﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لا يمكنني ولا يحق لي أن أغيّر أو أبدّل في القرآن من عند نفسي وإنما الأمر هو بيد الله سبحانه ﴿إن أتَّبِعُ إلاَّ ما يُوحَى إليَّ﴾ أي ما أنا إلا متبع ومبلغ ما ينزله إلي ربي من الوحي ﴿إنّي أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إني أخشى إن خالفت أمر الله وبدّلت ما أوحاه الله إليّ عذاب يوم عظيم وهو عذاب يوم القيامة.

ثم يأتي الدليل الواضح والبرهان القوي على صدق نبوّة محمد ﷺ مستقى من حياته:

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تلوتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ قل لهم يا محمد: لو شاء الله لم يُنزّل عليّ القرآن ولم يأمرني بقراءته عليكم، لكنني تلوته عليكم، وتلاوته دليل على أني رسول

من عند الله لما يتضمن من إعجاز، وكلام فوق مستوى البشر ﴿ولا أدْرَاكُم بِـهِ﴾ ولا أعلَـمَكم الله بالقرآن على لساني بما أوحى به إليّ ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فيكم عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي فقد عشت بينكم عمراً طويلاً شاهدتم فيه أطوار نشأتي وسلوكي فلم تروا حالة تشبه حالة نزول الوحي عليّ من الله ﴿أفلا تعقلون﴾ أفلا تفكّرون بعقولكم لتعلموا يقيناً أن سيرتي قبل النبوة وما جئتكم به من الهدى يشهدان أني رسول الله حقّاً؟

لقد عاش محمد ﷺ أربعين سنة في مكة لم يقل في أثنائها شعراً ولا ارتجل خطبة ولا عرف شيئاً من شرائع الأمم وأديانها، ولم يخالط الأحبار والرهبان حيث لم يكن لهم وجود في مكة، ولم يدخل معهداً، مع العلم أنه لم يكن في جزيرة العرب كلها معهد في ذلك الزمن للتدريس، كما أنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب.

ومن المشاهد أنّ أيّ شخص تظهر عليه أمارات النبوغ في علم ما تظهر بوادره في عنفوان شبابه، ومحمد في هذه الفترة من حياته لم يظهر عليه شيء من هذا القبيل، بل جُلّ ما اتصف به هو الصدق والأمانة حتى لُقّب بالصادق الأمين، كما اشتهر عنه السيرة الحسنة والعزوف عن مخالطة قومه في المجون واللهو وعبادة الأصنام والبعد عن الآثام.

وعند بلوغه سن الأربعين قال لقومه: إن الوحي الإلهي نزل عليه من السماء وإنه رسول الله إلى خلقه، ثم تتابعت آيات القرآن تنزل عليه. فإن قيل بأن محمداً ليس برسول من عند الله وإنه عبقري فنقول: لا توجد عبقرية يتأخر صدورها إلى تلك المرحلة المتأخرة من العمر.

كما أن القرآن لا يشبه ما صدر عن عباقرة التاريخ بل هو كتاب هداية يشتمل على العقائد الإلهية المؤيدة بالبراهين العقلية، والعبادات الروحية والجسدية، والأخلاق والفضائل الإنسانية والشرائع العادلة.

ومن الأدلة على صدق نبوة محمد ﷺ أنه لم يأت قومه بالقرآن جملة واحدة مما يثير الظن أنه كان منكبًّا على تأليفه وتنقيحه زهرة شبابه، بل القرآن كان ينزل عليه حسب الوقائع والأحداث التي تستلزم إصلاح ما عليه قومه من وثنية وفساد وظلم

اجتماعي، وما يسأله أتباعه وأعداؤه عن قضايا يجيب عنها بما كان يوحيه الله إليه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي لا أحد أشد ظلماً ممن اختلق على الله كذباً وزعم أنه رسول من عند الله وهو ليس رسولاً، أو بدّل كلام ربه وأضاف إليه شيئاً مما ليس منه ﴿أو كذّب بآيَاتِهِ﴾ أو كذّب بآيات القرآن وزعم أنها ليست من عند الله ﴿إنّه لا يُفْلح المجْرِمُون﴾ إنه لا يفوز الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم لرسول الله محمد ﷺ.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

شرح المفردات

أتنبّئون الله بما لا يعلم: أتخبرونه بما لا وجود له أصلاً وهو شفاعة الأصنام عنده.

سبحانه: تنزيهاً له تعالى.

أُمّة: جماعة من الناس يجمعهم أمر واحد من دين أو مكان أو زمان.

كلمة سبقت من ربك: الكلمة هي تأخير جزائهم إلى يوم القيامة.

لولا أُنزل عليه آية من ربه: هلاّ أُنزل عليه معجزة من ربه.

الغيب: هو ما غاب عن حواس الناس من الأشياء.

تسفيه عبادة الأصنام

ثم يبين القرآن مدى جهل المشركين الذين يعبدون أصناماً لا تنفع ولا تضر :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُم ولا يَنفَعُهُم﴾ أي ويعبد المشركون من غير الله أصناماً لا تنفعهم ولا تضرهم في شيء، والعبادة هي الطاعة مع الخضوع والتذلل والتعظيم ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ ويقول هؤلاء المشركون إن أصنامهم تشفع لهم عند الله في دنياهم لتيسير أمورهم، وهي تشفع لهم في الآخرة في تخفيف العقاب عنهم، إذا كان هناك بعث وثواب وعقاب، هذا مع العلم أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث.

﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ في السَّمٰوَاتِ ولا في الأرضِ﴾ قل يا محمد إنكاراً عليهم وتوبيخاً: أتخبرون الله تعالى بأن أصنامكم تشفع لكم عنده؟ كيف تزعمون ذلك والله لا يعلم أن لهؤلاء الشفعاء وجوداً وأثراً في السماوات والأرض، فلو كانوا شفعاء عند الله لكان الله أعلم بهم منكم فهل تعلمون أنتم ما لا يعلمه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه الله وارتفع مقاماً عن كفرهم وعن الشركاء له الذين تشركونهم مع الله في العبادة.

وبعد أن بيّن القرآن أن وحدانية الله هي التي يقوم عليها الدين الحق بيّن بعد ذلك أن التوحيد ملّة منذ القدم وفطرة في النفس الإنسانية:

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ والمراد بالناس الجنس البشري فإنم كانوا أمة واحدة على ملة التوحيد يعبدون الله وحده متفقين على الدين الحق ثم وقع الاختلاف بين الناس ما بين ضال ومهتد، وعُبدت الأصنام وجُعِلَ لله شركاء فأرسل الله إليهم رسله يبشرون المهتدين بالثواب الجزيل، وينذرون الكافرين بالعقاب الأليم، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر منه:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ

بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿ولولا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ ولولا أن قضى الله في سابق علمه بأن جعل لكل أمة أجلاً، وتأخير الحكم على هذه الأمة إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُم فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ لحكم بينهم عاجلاً فيما اختلفوا فيه بأن يهلك أهل الباطل وينجي أهل الحق، ولكن حكمة الله اقتضت إمهال أهل الباطل بإنزال العذاب بهم إلى موعد اختص به وحده بعلمه لأن الدنيا دار تكليف، ودار الآخرة دار ثواب وعقاب.

ثم تحكي الآية التالية بعض ضلالات المشركين الذين اشترطوا لإيمانهم نزول معجزة على رسول الله ﷺ سوى معجزة القرآن:

﴿وَيَقُولون لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي ويقول هؤلاء المشركون: هلاّ أنزل الله على محمد معجزة كمعجزات الأنبياء السابقين كالتي حدثنا عنها تكون علامة على صدق نبوّته ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فقل لهم يا محمد إن نزول المعجزة هي من الأمور الغيبية لا يقدر الإتيان بها إلاّ الله ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِنَ المُنْتَظِرِينَ﴾ أي ليس دأبي ودأبكم إلاّ انتظار ما يأتي به الله من القضاء بينكم، إني معكم من المنتظرين لِمَا يفعل الله من تعجيل العقوبة للمبطل منا.

لقد طلب المشركون معجزة من محمد ﷺ وفاتهم أن الله أيده بالقرآن الذي هو معجزة المعجزات في أسلوبه وهديه وتشريعه، وما جاء به من أخبار الغيب وأسرار الكون. فمعجزة القرآن هي معجزة عقلية علمية متجددة العطاء تشهد على صدق نبوة محمد ﷺ، كما تشهد على أن القرآن وحي من الله وليس من صنع البشر.

أما معجزات الأنبياء السابقين فهي معجزات حسيّة يؤمن بالله من شاهدها من أقوامهم، أما من يأتي بعدهم من الأمم فيؤمنون بها على أنها خبر من الأخبار، ويضعف تأثيرها بانقضاء زمانها.

وهذه الحقيقة أشار إليها رسول الله محمد ﷺ إذ قال: «ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أُعطي من الآيات (أي المعجزات) ما مثله آمن عليه البشر، وكان الذي أُوتيته وحياً (أي القرآن) أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً (أي أتباعاً) يوم القيامة»[1].

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾

شرح المفردات

رحمة من بعد ضراء: رخاء بعد شدة وخصب من بعد جدب.

مستهم: أصابتهم.

مكر في آياتنا: طعن بآيات القرآن وتكذيب بها.

قل الله أسرع مكراً: أي الله أعجل عقوبة على مكركم السيىء.

إن رسلنا يكتبون: أي إن الملائكة تكتب آثامهم.

بريح طيبة: أي لينة الهبوب موافقة للمقصد.

ريح عاصف: ريح شديدة الهبوب.

(١) أخرجه الشيخان.

أُحيط بهم: أحدق بهم الهلاك.

يبغون في الأرض: يظلمون ويفسدون فيها.

متاع الحياة الدنيا: ما تستطيبه النفوس في هذه الحياة ويأتي عليه الفناء.

طبيعة الإنسان في النعمة والمحنة

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن كفار مكة الذين أصابهم القحط سبع سنين حتى كادوا أن يهلكوا، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم بالخصب والمطر ووعدوه بالإيمان، فلما دعا الله لهم واستجاب دعاءه، ورحمهم بإنزال المطر، أخذوا يطعنون بآيات القرآن وهذا ما حكاه الله عنهم:

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ والذوق في أصل اللغة إدراك الطعام بالفم ويستعمل في إدراك غيره من الأشياء المعنوية كالنعمة والعذاب. والمعنى: وإذا أنعم الله على هؤلاء الكفار وأمثالهم برحمة منه من بعد ضرّاء أصابتهم، كالرخاء بعد الشدة والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط، وأذاقهم طيب العيش **﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾** إذا: هي للمفاجأة، أي إنهم أقدموا سريعاً على المكر، وهو الطعن في آيات القرآن وتكذيبها والاستهزاء بها وإلقاء الشبه عليها. والمكر في اللغة: تدبير الشر للغير خفية والاحتيال لإيقاع الأذى بهم **﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾** قل لهم يا محمد على سبيل التهديد والوعيد: اللّه سبحانه أسرع وأشد عقوبة على مكركم، فلن يصل إليك يا محمد وإلى آيات القرآن شيء من كيدهم.

وتسمية عقوبة الله مكراً ـ والله يتنزه عن المكر ـ هي من باب المشاكلة وهي الإتيان بلفظ ليس المراد به حقيقة معناه اللغوي الذي يتبادر إلى الذهن، ولكنه جيء بهذا اللفظ لوقوعه في صحبة غيره من اللفظ ذاته، فكأن الله يقول: إننا حين نعاقبك أيها الإنسان على مكرك فإننا نمكر بك فَسُمِّي ما يستحقون من عقوبة باسم فعلهم وهو المكر **﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾** فالله يقول: إن رسلنا من الملائكة **الحفظة الموكلين بكم يكتبون ما تمكرون وسيجازيكم على مكركم يوم القيامة.** وعبرت

الآية بفعل المضارع في يكتبون ويمكرون الذي يفيد التكرار والمستقبل، أي تتكرر كتابة الملائكة أعمالهم السيئة كلما يتكرر مكرهم.

ويتابع القرآن فيقدم مثالاً عن طبيعة الإنسان عندما يقع في مواطن الخطر وما يصدر عنه عندما يزول الخطر عنه:

﴿هُوَ الَّـذي يُسَـيِّرُكُمْ في البَـرّ وَالبَـحْرِ﴾ أي أن الله تعالى هو الذي يسيّركم - أيها الناس - بقدرته ورحمته في البر والبحر بما وهبكم القدرة على السير وبما سخّر لكم من الإبل والدواب والسفن التي تجري في البحر، وبما ألهمكم صنعه من وسائل الركوب كالقطارات والسيارات في البرّ والطيارات التي تطير في الجو ﴿حَتَّى إذَا كُـنْـتُـم في الـفُـلْـكِ وَجَـرَيْـنَ بِـهِم بِـرِيحٍ طَـيِّـبَـةٍ وَفَـرِحُوا بِـهَا﴾ أي حتى إذا ركبتم في السفن وسارت بسبب ريح طيبة مواتية لكم في جهة سيركم وفرح ركاب السفينة بتلك الريح الطيبة المواتية للسفينة[1] ﴿جَاءَتْـهَا رِيـحٌ عَاصِفٌ﴾ وفي تلك الحالة من الاستقرار والاطمئنان إلى سير السفينة جاءت ريح شديدة السرعة فأثارت الأمواج ﴿وَجَـاءَهُمُ الْـمَـوْجُ مِنْ كُـلِّ مَـكَانٍ﴾ وأحاطت الأمواج بالسفينة ومن فيها من كل جانب، وتقاذفتها الأمواج العالية[2] ﴿وَظَـنُّـوا أَنَّـهُم أُحيطَ[3] بِـهِم﴾ أي أيقن راكبو السفينة بأنهم هالكون لا محالة ﴿دَعَـوُا اللَّـهَ مُخْـلِـصِينَ لَـهُ الـدِّينَ﴾ وفي هذه الحالة التي أيقنوا فيها بالهلاك دعوا الله مخلصين له الدين أن يكشف عنهم هذا الخطر الشديد. إنها الفطرة الإنسانية

---

(١) كانت السفن في عهد نزول القرآن منذ أربعة عشر قرناً سفناً شراعية.

(٢) هذا الوصف القرآني لاضطراب البحر والشعور الذي ينتاب المسافرين حينئذ لفت نظر أحد ربان السفن الأجانب عندما قرأ ذلك في ترجمة للقرآن فسأل بعض المسلمين: أتعلمون أن نبيكم محمداً سافر في البحار، قالوا: لا، ولم يرو عنه أنه سافر في البحر قط، فاعتقد هذا الربان أن ما في القرآن مما ذُكر لم يكن إلاّ بوحي من الله تعالى لنبي الإسلام، وكان ما قرأه أيضاً من ترجمة للقرآن وما يحتويه من توحيد الله وتشريع وأخلاق سبباً لاعتناق الإسلام وهو المستر عبد الله براون، وقد أقام في مصر واجتمع به الشيخ رشيد رضا رحمه الله. هذا ما ذكره الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار.

(٣) العرب يقولون: أحاط العدو بالقبيلة إذا تمكن منها وغلبها، (فأحيط بهم) استعارة تمثيلية للهلاك.

التي تلجأ إلى الله وحده في مواطن الخطر، وتترك اللجوء إلى ما كانت تعبد من قبل من غير الله، حتى إن الملحدين في تلك الحالات المحفوفة بالخطر يلجأون إلى الله ويطلبون منه النجاة، لأن الخطر الشديد الداهم لهم يعيد إليهم صوابهم، ويبين لهم أن هناك يد القدرة الإلَهية التي تتصرف في الوجود، القادرة على إنقاذهم مما هم فيه.

ثم يحكي لنا القرآن ما يقوله ركاب السفينة وهم في هذا الخطر المحدق بهم: ﴿لَـئِنْ أَنْـجَيْـتَـنَـا مِنْ هَذِهِ لَـنَـكُونَـنَّ مِنَ الشَّاكِـرِينَ﴾ أي والله لئن أنقذتنا من هذه الكارثة لنكونن من جماعة المؤمنين الشاكرين لنعمائك ولا نشرك بعبادتك أحداً.

﴿فَلَمَّا أَنْـجَاهُم إذَا هُمْ يَـبْـغُونَ في الأَرْضِ بِـغَـيْـرِ الْحَقِّ﴾ أي فلما استجاب الله دعاءهم وأنقذهم من الهلاك المحيط بهم، نقضوا عهدهم، وعادوا فجأة إلى الفساد والظلم في الأرض، وقوله سبحانه ﴿بغير الحق﴾ تأكيد لما يفيده معنى البغي وهو الظلم والفساد، وأنهم فعلوا ذلك تمرداً وعناداً. وقد يكون من جملة البغي الرجوع إلى معبوداتهم الباطلة، والشرك بالله الذي هو بغي، لأنه تجاوز عن عبادة الله وهو أعظم اعتداء حيث سماه القرآن ظلماً عظيماً ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿يَا أَيُّهَا الـنَّـاسُ إنما بَـغْـيُـكُم عَـلَى أَنْـفُسِكُم﴾ هذا التفات من الكلام عن البغاة إلى مخاطبتهم وجهاً لوجه، والمعنى: يا أيها الناس المفسدون في الأرض المعتدون على الغير إنما ضرر بغيكم هذا مرجعه إليكم لا إلى غيركم، فأنتم وحدكم الذين تتحملون وزره وسوء عاقبته في الدنيا والآخرة ﴿مَتَـاعَ الْحَياةِ الدُّنْـيَـا﴾ وأنتم تتمتعون بثمرة بغيكم على الآمنين تمتعاً مقتصراً على الحياة الدنيا، ومتاع الدنيا قليل لا يعتدّ به وهو سريع الزوال ﴿ثُـمَّ إلَـيْـنَـا مَـرْجِعُـكُم فَـنُـنَـبِّـئُـكُم بِـمَا كُـنْـتُم تَـعْـمَـلُونَ﴾ ثم إلى الله وحده ترجعون إليه ليعاقبكم على ما قدمتم من ظلم وفساد، ويخبركم بذلك زيادة في إيلامكم، وفي هذا ما فيه من التهديد والوعيد لهم على بغيهم. وقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: «ما من ذنب أجدر من أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدّخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرَّحِم» (أخرجه أبو داود وابن ماجه).

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

شرح المفردات

الأنعام: هي الإبل والبقر والغنم والماعز.

أخذت الأرض زخرفها: استكملت حسنها وبهاءها.

وازّينت: تزينت بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة.

أتاها أمرنا: أتاها قضاء الله بإهلاكها.

حصيداً: مقطوعة مستأصلة كما يُحصد الزرع من أصله بالمناجل.

كأن لم تغن بالأمس: كأن لم تمكث تلك الزروع قائمة على ظهر الأرض في الماضي القريب.

دار السلام: هي الجنة.

الحسنى: المثوبة الحسنة وهي الجنة.

وزيادة: أي النظر إلى وجه الله الكريم.

ولا يرهق وجوههم: ولا يغشى وجوههم ولا يعلوها.

قتر: شبه دخان يغشى الوجه من كرب أو هول.

حقيقة الحياة الدنيا

ولمّا كان سبب بغي الناس هو إسرافهم في حب الدنيا والتمتع بزينتها بيّن الله في الآيات التالية حقيقتها للناس حتى لا يغترّوا بها ولا يطمئنوا إلى دوامها:

﴿إِنَّما مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيا كمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ﴾ لقد مثّل الله حال الحياة الدنيا في فنائها وزوال متعها بماء المطر الذي ينزل من السماء فينبت بسببه أنواع كثيرة من النبات ويختلط بعضه ببعض ويتشابك على كثرته واختلاف أنواعه ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ﴾ أي مما يأكل منه الناس من الحبوب والثمار والخضار، وما تأكله الأنعام والبهائم من الأعشاب والمراعي ﴿حتى إذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾[1] والزخرف: هو الذهب ويطلق على الزينة وكمال حسن الشيء، لقد شبّه الله الأرض في تزينها بأصناف النباتات وأشكالها وألوانها المختلفة بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون وتزينت بأنواع الحلي ﴿وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ وظن أهل تلك الأرض أنهم قادرون على حصادها والحصول على ثمراتها والانتفاع بخيراتها ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهاراً﴾ أي أتاها قضاء الله بهلاك ما عليها من النبات بإصابتها ببعض العاهات والآفات ليلاً أو نهاراً[2].

﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً﴾ أي جعل الله ما عليها من النبات كالأرض المحصودة التي قطع زرعها من أصوله بسبب ما أصابها من التلف ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ كأن لم يكن زرعها موجوداً فيها بالأمس مخضرًّا طريًّا يُنتفع به ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي كهذا المثل في وضوحه وبروز العبرة فيه يفصّل الله الآيات ويضرب الأمثال الدالة على وحدانيته وقدرته الشاملة لقوم يحسنون التفكير ويعتبرون بحال هذه الدنيا ومآلها.

فالله يصور حالة من يتعلق قلبه بالدنيا ويعظم رجاؤه في الانتفاع بملذاتها، فمثله

---

(١) ازينت: أصلها تزينت أبدلت التاء زاياً وأدغمت في الزاي.

(٢) في هذا العصر الذي بلغت فيه الحضارة أوجها وأخذت الأرض زخرفها من العمران وظن الإنسان أنه قادر على هذه الأرض بما توصل إليه من اختراعات، أخشى على هذه الحضارة من الدمار والهلاك بسبب طغيان الإنسان وظلمه وإعراضه عن ربه. وما يصيب العالم اليوم من زلازل وفيضانات وأعاصير إن هو إلا تذكير للإنسان بضعفه أمام قدرة الله المتصرفة في الكون، وإنذار له على تمرده عن طاعته.

كمثل النبات المزدهر ذي الألوان الخلابة فإنه لا يلبث أن تصيبه جائحة سماوية تقضي عليه، وكذلك حال المتمسك بالدنيا إذا نال منها بغيته ومطلبه أتاه الموت فجأة فسلبه كل ما هو فيه من نعيم الدنيا وملذاتها، فلا يغتر الإنسان بهذه الدنيا وليكن قلبه معلقاً دائماً بربه وابتغاء رحمته.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ والله يدعو الناس إلى دار السلام وهي الجنة ويكون ذلك بالإيمان بوحدانية الله والدخول في الإسلام والعمل بشريعة القرآن.

وسميت الجنة دار السلام لأن فيها السلامة من جميع الآفات والمصائب والأكدار والمكاره والعداوة والخصام. كما سميت الجنة بدار السلام لأن الله تعالى يسلم على أهلها قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]. والملائكة يسلمون على أهل الجنة قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]. والمؤمنون يحيّون بعضهم بعضاً في الجنة، قال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠]. ويمكن أن يكون الله قد أضاف الجنة إلى اسمه على سبيل التعظيم والتشريف، لأن من أسماء الله الحسنى لفظ «السلام».

﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ويرشد الله من أراد له الهداية إلى الطريق المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة وهو دين الإسلام.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ أي للذين أحسنوا عبادة الله في الدنيا من خلقه، فأطاعوه في ما أمر ونهى، لهم المثوبة الحسنة وهي الجنة، أما الزيادة عليها فهي النظر إلى وجه الله الكريم في الجنة ورؤيته سبحانه بلا حجاب. وقد قال رسول الله ﷺ في ذلك: إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل[1] ﴿وَلَا يَرْهَقُ

(١) أخرجه مسلم وأحمد والترمذي.

وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ قتر: غبرة فيها سواد، أي ولا يغطي وجوههم يوم القيامة شيء مما يغطي وجوه الكفار من السواد والهوان والانكسار ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي أولئك الذين أحسنوا في دنياهم وأطاعوا ربهم هم أصحاب الجنة. وكلمة (أصحاب) توحي بأنهم كالمالكين لها، أو هم يلازمونها ملازمة الصاحب لصاحبه، وهم في الجنة ماكثون فيها لا يخرجون منها أبداً.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾

شرح المفردات

كسبوا السيئات: عملوا السيئات.

ترهقهم: تغشاهم، يقال رهقه إذا غشيه بقهر.

عاصم: مانع يمنع عنهم سخط الله وعذابه.

أغشيت: أُلبست.

مكانكم: أي الزموا مكانكم في موقف الحساب.

فزيّلنا بينهم: فرقنا بينهم، أو قطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا.

تبلو كل نفس ما أسلفت: أي تختبر ما قدمت من عمل فتعاين نفعه وضرّه.

ضل عنهم: غاب أو ذهب عنهم.

يفترون: يختلقون ويكذبون.

جزاء الذين كسبوا السيئات

وبعد أن بيّن القرآن مصير الذين أحسنوا أعمالهم أتبع ذلك ببيان مصير الذين عملوا السيئات، ومجيء المقابل للشيء يرسخه في الذهن ويبرز صورته بوضوح:

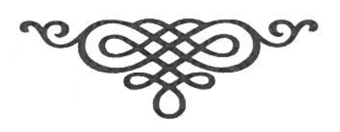
﴿والَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ أي والذين عملوا السيئات في الدنيا فكفروا بالله واقترفوا المعاصي فسيجزون بمثل ما عملوا من سوء بما يستحقون من عقاب يوم القيامة **﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾** ويغشاهم ذلٌّ وهوان لعقاب الله إياهم **﴿مَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾** أي ليس لهم مانع يمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم **﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُم قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾** تصوير بديع للظلام المعنوي الذي يبدو على وجوه هؤلاء المسيئين حيث تبدو وجوههم مسودّة من الغم والكآبة كأنما أُسدل عليها سواد من ظلمة الليل **﴿أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** أولئك هم أهل النار الذين يعذّبون فيها أبداً.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ واذكر أيها الرسول، أو اذكر أيها الإنسان يوم يجمع الله الناس كافة في موقف الحساب يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم في دنياهم **﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُم أَنْتُم وَشُرَكَاؤُكُم﴾** ثم يقول الله موبخاً المشركين: الزموا مكانكم أنتم ومن عبدتموهم من دون الله حتى تُسألوا وتنظروا ما يُفعل بكم.

وشركاؤهم الذين ذكرتهم الآية هم أصنامهم وغيرها من معبودات من إنس وجن وملائكة، وقد وصفوا بالشركاء لاعتقاد المشركين أنهم شركاء لله، وكذلك من باب التهكم بهم لأن الذين عبدوهم لم يكونوا قط شركاء لله **﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُم﴾** أي ففرق الله بين المشركين وبين من أشركوهم مع الله في العبادة، والمراد من التفريق بينهم هو قطع ما كان بينهم في الدنيا من صلات وما كان للمشركين في معبوداتهم من آمال في شفاعتهم **﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَا كُنْتُم إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾** وقال شركاؤهم الذين كانوا يعبدونهم: ما كنتم تخصّوننا بالعبادة بأمرنا وإرادتنا وإنما كنتم تعبدون

أهواءكم وشياطينكم الذين أغووكم فإنها كانت الآمرة لكم بالإشراك بالله. وهؤلاء المعبودات إما أصحاب عقل وإدراك كالملائكة والبشر، وإما أنها غير عاقلة ولا ناطقة كالأصنام فينطقها الله الذي أنطق كل شيء فتتبرأ منهم **﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم﴾** فتقول هذه المعبودات: حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم على براءتنا من عبادتكم لنا **﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُم لَغَافِلِينَ﴾** أي ما كنا نشعر بعبادتكم لنا ولا نعلم بها.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ أي في ذلك المكان وهو موقف الحساب أمام رب العالمين تُختبر كل نفس وتعلم يقيناً ما قدمت من أعمال في الدنيا من خير أو شر **﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾** أي ورجعوا إلى الله في الآخرة وعرفوا أن الله هو مالكهم وإلههم الحق دون ما اتخذوا من شركاء لله **﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** وغاب عنهم ما كانوا يدّعون زوراً وبهتاناً من أن هناك آلهة أخرى ستشفع لم يوم القيامة أو أنها شركاء لله.



﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

شرح المفردات

ومن يُدبِّر الأمر: ومن يلي أمر تدبير العالم.

أفلا تتقون: أفلا تقون أنفسكم عقاب الله بسبب ما جعلتم له شريكاً في العبادة.

فأنى تُصرفون: فكيف تميلون عن الحق إلى الباطل.

حقّت: وجبت.

فأنى تؤفكون: فكيف تنصرفون عن عبادة الله.

يهدي: يرشد.

الصفات التي يختص بها الله تعالى

ثم ينتقل القرآن إلى محاورة المشركين عن طريق السؤال والجواب لتقرير ثبوت الألوهية لله وحده، وبطلان عبادة الأصنام وإفحامهم بالحجة والبرهان:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: من

الذي يرزقكم من السماء بإنزال المطر الذي يحيي الأرض بعد موتها، ويرزقكم من الأرض التي ينبت فيها أنواع النبات والحبوب والثمار مما تأكلون منه وتأكل منه أنعامكم ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ بل قل لهم: من الذي يملك ما تتمتعون به من السمع والبصر، ومن غيره يستطيع خلقهما وتسويتهما بميزاتهما التي أوجدهما بها بحيث تقف النفس أمام أسرارهما مشدوهة منبهرة لما فيهما من إبداع، ولولا السمع والبصر لم يدر الإنسان شيئاً من أمر العالم الذي يحيط به، بل كان حاله وحال الجماد سواء.

وقد جاء لفظ السمع مفرداً، ولفظ الأبصار جمعاً لأن السمع نوع واحد وهو يتعلق بالصوت، أما الأبصار فيشمل الأحجام والألوان والأشكال ورؤية كل ما على الأرض وما في السماء ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الميِّتِ﴾ وقل يا محمد للمشركين من بيده أمر الموت والحياة فيخرج الحي من الميت كإخراج النبات من الأرض الميتة الجافة بعد إحيائها بماء المطر، وكما خلق الله الإنسان من تراب ثم سواه ونفخ فيه من روحه فدبّت فيه الحياة ﴿وَيُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الحيِّ﴾ ومن الذي يخرج الميت من الحي كالإنسان والكائنات الحية عندما تُسلب عنها الحياة، هذا وفي الإنسان تموت ملايين الخلايا الحية، وينشأ بدلها خلايا حية باستمرار فما أعظم القدرة الإلهية ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ وقل لهم: من الذي يتولى تدبير أمور المخلوقات بعد إيجادها، كتعاقب الليل والنهار، وإمدادكم بالطاقة والحرارة من الشمس، ومن الذي يمدكم بالهواء الذي تستنشقونه، والماء الذي تشربونه مما تقوم عليه حياتكم ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ فسيعترفون بأن الله هو الذي خلقهم، وهو الذي يدبّر أمورهم ﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ فقل لهم يا محمد: أتعترفون بأن الله هو الخالق المدبر للكائنات، ومع ذلك تشركون معه غيره في العبادة وهي الأصنام التي لا تضر ولا تنفع؟ أليس أجدر بكم أن تُذعنوا للحق وتخافوا الله مالك الملك؟

﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ فذلكم الله الذي أقررتم بربوبيته علناً أو في قرارة أنفسكم هو الحق الجدير بأن يُعبد ولا يشرك معه أحد في العبادة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا

الضَّلالُ﴾ ما أروع هذه الجملة وما أبلغها، فالحق والباطل نقيضان لا يجتمعان، فمن يترك الحق يقع في الضلال، وعبّر القرآن عن الباطل بالضلال لأن الضلال أقبح أنواع الباطل، إنها حجة قوية دامغة يقدمها القرآن لدحض كل التوجهات في العبادة لغير الله ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أنّى: بمعنى كيف، أي أبعد ما عرفتم كل هذه البراهين والحجج على وحدانية الله، ونفي الشريك عنه، وأنه وحده الجدير بالعبادة، فكيف تنصرفون عن عبادته وتعبدون غيره.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي كما ثبت أنّ الحق نقيض الضلال، وثبتت ألوهية الله للكون وحده، كذلك ثبت حكم الله وقضاؤه على الذين فسقوا أي خرجوا عن أمره، وتمردوا على طاعته أنهم لا يؤمنون، وليس معناه أنه تعالى منعهم من الإيمان، بل معناه أنهم امتنعوا عنه باختيارهم الكفر ورفضهم الإيمان.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين على سبيل الإلزام والتوبيخ: هل من معبوداتكم التي جعلتموها شركاء لله من تستطيع أن تنشىء الخلق ابتداء ثم تعيده حيًّا بعد الفناء؟ ولمّا كان هؤلاء لا يجيبون على هذا السؤال لإنكارهم البعث والمعاد، أمر الله رسوله محمداً أن يبين لهم الجواب على ذلك: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي قل لهم: الله وحده هو الذي ينشىء الخلق من عدم ثم يعيده بعد فنائه. فالقادر على بدء الخلق قادر على إعادته، بل هو هين عليه. وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧]. وهذا أمر بديهي في مفهوم الناس لأن من اخترع ساعة أو سيارة يسهل عليه إعادة صنعها، هذا وليس هناك هين وأهون عند الله فالكل هين لديه سواء. ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادة الله إلى عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء

المشركين: هل من معبوداتكم التي جعلتموها شركاء لله من يستطيع أن يهدي غيره إلى الدين الحق فينزّل كتاباً من السماء فيه شريعة لهم تبين لهم الرشد من الغيّ؟ وهذا سؤال مفحم لأنهم لا يستطيعون القول: إن أصنامهم تهدي إلى الحق الذي يجب أن يُتبع، لذا أمر الله رسوله محمداً أن يجيب على هذا السؤال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي إن الله وحده هو الذي يهدي الناس ويرشدهم إلى الحق بإرسال الرسل والأنبياء وتأييدهم بكتب الله. ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لا يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾ أي فهل القادر على الهداية إلى الحق وهو الله سبحانه أحق أن يُعبد ويُتبع إلى ما يدعو إليه، أم الذي لا يهدي أحداً وهي الأصنام ولا تستطيع هداية نفسها؟ وفي قوله سبحانه: ﴿إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾ تهكّم بالمشركين حيث ينقلون أصنامهم من موضع إلى الموضع الذي يريدونه لها فهي لا تهتدي إلى مكان ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ سؤال تعجب من حالهم باستفهامين متواليين للتقريع والتوبيخ، أي ما الذي أصاب عقولكم باتخاذ الأصنام شركاء لله؟ وكيف تحكمون هذا الحكم الباطل بأن أصنامكم آلهة تُعبد؟

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا﴾ وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين في معتقداتهم وأحكامهم إلا ظنوناً باطلة لا دليل عليها توارثوها عن آبائهم وأجدادهم ﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ إن الظن لا تثبت به الحقائق ولا يقوم مقام العلم اليقيني، والمراد بالحق هنا هو ما ثبت بطريق وحي من عند الله. هذا التفريق ما بين الظن والعلم اليقيني هو ما قام عليه البحث العلمي حاليًّا في إدراك الحقائق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ إن الله عليم بأقوال المشركين وأفعالهم، وفي هذا تهديد لهم إن استمروا على كفرهم.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

شرح المفردات

يُفترى: يختلق ويُكذّب.

تصديق الذي بين يديه: مطابقاً لِما تقدّمه من الكتب الإلهية في أصولها.

تفصيل الكتاب: تفصيل ما كُتب وأثبت من العقائد والشرائع.

افتراه: اختلقه.

من دون الله: سوى الله.

لم يحيطوا بعلمه: لم يعرفوا معاني القرآن ولا اطلعوا على أسراره وإعجازه.

ولـمّا يأتهم تأويله: ولم يقفوا بعد على تأويله ولم تبلغ أذهانهم معانيه، فالتأويل بمعنى التفسير.

عاقبة: خاتمة ونهاية.

الدلائل على أن القرآن وحي من عند الله

ثم ينتقل القرآن إلى الرد على المشركين الذين زعموا أن القرآن قد اختلقه محمد من عند نفسه ونسبه إلى الله كذباً وبهتاناً، قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَـانَ هَذَا الـقُرْآنُ أَن يُـفْتَرى مِن دُونِ اللّـهِ﴾ أي ما ينبغي لهذا القرآن أن يُختلق ويُفترى به على الله، وذلك أن كفار قريش زعموا أن محمداً قد اختلق القرآن من عند نفسه وأنه ليس من عند الله. ومما يدحض مزاعمهم أن القرآن بما فيه من إعجاز

وبلاغة وهداية وأحكام وعبادات لا يمكن أن يكون من عند غير الله.

ثم يبين الله الحقيقة المتوخاة من نزول القرآن على رسوله محمد ﷺ ﴿وَلَـكِن تَـصْدِيقَ الَّـذِي بَـيْـنَ يَـدَيْـهِ﴾ أي أن الله أنزل القرآن مصدقاً وموافقاً لما تقدم من الكتب السماوية السابقة في أصول العقائد والأحكام، ومصححاً للعقائد التي عبث بها رجال الدين فردّها القرآن إلى أصلها الأول وهو توحيد الله والخضوع له وعبادته وحده ﴿وَتَـفْصِيلَ الكِـتَـابِ﴾ كما أنزل الله القرآن الذي فيه تفصيل كل الأحكام التي أجملتها الكتب السماوية السابقة من عقائد وتشريعات وزادها كمالاً، كما نسخ من الأحكام مما لم يعد مصلحة للناس فيها. فالكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل كانت تضم الأحكام المناسبة لزمانها، أما القرآن فجاء بالأحكام التي تصلح لكل زمان ومكان. ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿لا رَيْـبَ فيه منْ رَبِّ العَالَـمِينَ﴾ هنا ردٌّ على مزاعم الذين قالوا إن القرآن مختلق من عند محمد ﷺ، فالقرآن لا شك أنه كلام الله رب العالمين الذي تعهد النوع الإنساني أجمعه بالتربية الإلهية لصلاحهم.

﴿أَمْ يَـقُولُونَ افْـتَـرَاهُ قُـلْ فَـأْتُـوا بِسُورَة مِثْلِـهِ﴾ أي إذا كان هذا القرآن مُفترى في زعم المشركين العرب، وهذا ما يقوله الكثير من أتباع الديانات الأخرى، فلماذا إذن لا تفترون مثل محمد ـ كما تدّعون ـ وتأتون بسورة واحدة مماثلة لسور القرآن حتى يصح ما زعمتم أن محمداً قد افتراه على الله، وفيكم الشعراء والبلغاء والفصحاء والخطباء؟ ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِنْ دُونِ اللَّهِ إنْ كُـنْـتُم صَادِقِينَ﴾ واستعينوا على الإتيان بمثله بمن تشاؤون من البلغاء والكتّاب والشعراء من دون الله لتبرير زعمكم بأن القرآن قد افتراه محمد، إن كنتم صادقين في دعواكم هذه، ومعنى ذلك أنه في حال عجزكم عن الإتيان بسورة مثله فإنكم كاذبون تعرفون الحق وترفضونه مكابرة وعناداً.

هذا ما تحداهم القرآن في هذه السورة به، وقد جاء التحدي أيضاً في موضع آخر من القرآن بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأثبت عجزهم، قال تعالى:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وفي موضع آخر تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثل سور القرآن ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

هذا هو التحدي الواضح الذي أعلنه القرآن منذ خمسة عشر قرناً، ولم نسمع إلى اليوم أن أديباً أو بليغاً أو شاعراً استطاع أن يأتي بسورة واحدة مثل سور القرآن في بلاغتها ومعانيها الباهرة، أي دليل وبرهان على صدق نبوة محمد ﷺ وعلى أن القرآن وحي إلَهي أقوى من ذلك.

وإني أوجه خطابي إلى الذين يدّعون أن القرآن من تأليف محمد من أتباع الديانات الأخرى أن يجمعوا فصحاءهم وشعراءهم وكتّابهم ويصوغوا كلاماً مثل كلام القرآن في فصاحته وبلاغته وهديه وتشريعه، فإذا عجزوا عن ذلك وسيعجزون لا محالة، إذن فليكفوا عن ادعاءاتهم الباطلة فإن الحق ظاهر بأن القرآن وحي من عند الله ولا ينكر ذلك إلاّ من سُلِب منه العقل والفهم وجهل بآداب اللغة العربية وأعماه التعصب.

وكلمة أخيرة أقولها في هذا المقام وهي أن القرآن لو كان من تأليف محمد لكان عقله وذكاؤه يحولان بينه وبين الجزم بعجز الغير عن الإتيان بمثل القرآن أو سورة من مثله، فما أمكن لإنسان أن يفعله يمكن لغيره أن يفعله.

ويتابع القرآن: ﴿بَلْ كَذَّبوا بِمَا لَمْ يُحيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ بل سارع الكفار إلى تكذيب أن القرآن مُنزل من عند الله، فهم لم يتدبروا آياته، ولم يحيطوا العلم بما فيه **﴿وَلَمَّا يَأْتِهِم تَأْوِيلُهُ﴾ أي إن تكذيبهم للقرآن حصل قبل أن يطلعوا على معانيه، وما اشتمل عليه من تشريع وآداب، وأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ، وقبل أن يتحققوا**

عاقبة ما فيه من الوعيد وما أخبر به عن المغيبات، ولو علموا ذلك كله لتبين لهم حينئذ مبلغ ضلالهم، وأن تكذيبهم بالقرآن كان عن جهل وقصور في الفهم **﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾** أي وبمثل هذه الطريقة في التكذيب بغير علم كذّب الكافرون من الأمم السابقة رسل الله وما أنزل عليهم من كتب حيث لم يحيطوا بالعلم بما جاءت به رسل الله من الهدى **﴿فَانْظُر كيف كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمينَ﴾** فانظر يا محمد مآل الظالمين وما حل بهم من عذاب الله، وهذا العذاب وصفه الله في موضع آخر من القرآن: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَمِنْهُم مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي ومن هؤلاء المشركين الذين كذبوا بالقرآن من يؤمن به في دخيلة نفسه ويعلم أنه صدق ولكنه ينكر ذلك جهراً مكابرة وعناداً، وقيل: ومنهم من سيؤمن به في المستقبل وإن كذّب به في الحال **﴿وَمِنْهُم من لا يُؤْمِن بِهِ﴾** ومن هؤلاء من لا يصدقون به أبداً لفرط جهلهم وتقليدهم لآبائهم وإيثارهم الضلال على الهدى **﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالمفْسِدينَ﴾** وربك يا محمد أعلم بالمفسدين الذين يؤثرون الضلال على الهدى وسوف يجازيهم بما يستحقون.

---

(١) الحاصب: ريح شديدة البرودة وهي عاصفة تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وقد عذّب الله بها قوم عاد، أما الصيحة فقد عوقب بها قوم ثمود. وقد عوقب قارون بالخسف، كما عوقب فرعون وجنده بالغرق

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) ﴾

شرح المفردات

لي عملي ولكم عملكم: لي ثمرة عملي ولكم ثمرة أعمالكم من الثواب والعقاب يوم الحساب.

ينظر إليك: يعاين دلائل نبوتك الواضحة يا محمد.

ويوم يحشرهم: ويوم يجمعهم في موقف الحساب يوم القيامة.

يلبثوا: يبقوا.

وإما نرينك بعض الذي نعدهم: أي وإن أريناك في حياتك بعض ما نعدهم من العذاب فذاك.

موقف رسول الله من المشركين

ويتابع القرآن فيبين لرسول الله ﷺ الموقف الذي يجب أن يأخذه تجاه المشركين:

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُم﴾ أي وإن كذّبك يا محمد هؤلاء المشركون ورفضوا ما جئتهم به من الهدى من عند ربك فقل لهم: لي ديني وعملي، ولكم دينكم وعملكم لا يضرني عملكم، ولا يضركم عملي، وإنما يجازي الله كلاًّ بما

عمل ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بريءٌ مِمَّا تَعْمَلونَ﴾ أي أنا مسؤول عن عملي أمام الله فلا تتحملون مسؤوليته، وأنتم مسؤولون عن أعمالكم، وكلٌّ منا بريء من عمل الآخر.

هذه الآية تثبت حرية الرأي التي توصل إليها العالم المتمدن بعد صراعات دامية والقرآن أول من نادى بحرية الرأي بهذا النص القرآني حيث لم يلزم أحداً باتباع رأي سواه بل ترك له الخيار في سلوكه وعمله، وكل إنسان يتحمل وزر عمله.

﴿وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي ومن المشركين من يستمعون إليك يا محمد إذا قرأت القرآن وبيّنت ما يحتويه من أصول الإيمان والأحكام ولكنهم لا يستمعون حقًّا إذ لا يتدبّرون القول ولا يفكرون بعقولهم بما يراد منه، وكان شأنهم في سماعه كما قال تعالى في موضع آخر من القرآن: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢ ـ ٣] لهذا وصفهم الله بالصمم ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ولو كانوا لا يَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي أأنت يا محمد تقدر على إسماع الصم وهم من فقدوا حاسة السمع، فكيف لو انضم إلى صممهم فقدان العقل عندهم؟ لقد وصفهم الله بفقدان السمع والعقل معاً الذي ينتج عنه عدم الإدراك والفهم في شيء.

﴿وَمِنْهُم مَنْ يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ومن هؤلاء المشركين من ينظر إليك يا محمد عندما تقرأ القرآن، ويشاهد البراهين الدالة على صدقك ولكنه يرفض دعوتك له إلى الإيمان جحوداً وعناداً ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي العُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾ أي أأنت يا محمد تستطيع أن تهدي من فقد البصر مع فقدان البصيرة في قلبه، لأن الأعمى الذي فقد البصر ولكن في قلبه بصيرة يكون له من الإدراك والوعي ما يفهم به الكلام الحق إذ تقوم البصيرة مقام النظر، أمّا من اجتمع لديه عمى البصر والبصيرة معاً فقد تعذّر عليه الإدراك.

والمقصود مما سبق من النص القرآني مواساة رسول الله مما يجابَه به من الرفض، فإن هؤلاء المشركين قد بلغوا من النفور منه والعداوة والبغضاء مبلغاً كبيراً بحيث لا ينفع فيهم علاج.

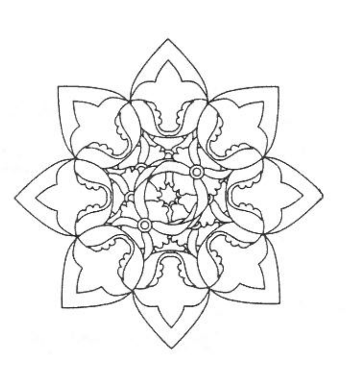
﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾ إن الله سبحانه وتعالى سيجازي الناس على أعمالهم بالعدل فلا يظلم بعقاب من لا يستحق العقاب ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولكنهم يظلمون أنفسهم لاختيارهم الكفر على الإيمان وارتكابهم ما يوجب سخط الله عليهم فيعاقبهم الله على معاصيهم. وفي الآية إشارة إلى أن عاقبة الظلم تقتصر على فاعله وأن الإنسان قد جعل الله له الاختيار في ما يعمل وليس مجبراً على فعل ما لا يريد.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ وحذّر أيها الرسول هؤلاء الظالمين يوم يجمعهم يوم القيامة في موقف الحساب والجزاء فيشتدّ كربهم وينسون تلك الملذات التي استمتعوا بها في دنياهم، حينئذ يدركون قصر المدة التي مكثوها في الدنيا حتى كأنها مقدار ساعة قضوها فيها، والمقصود بالساعة[1] هنا مدة قليلة من الزمن. وفي موقف الحساب: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً إذا خرجوا من قبورهم كما كانوا يتعارفون في الدنيا وهذا التعارف فيه توبيخ وافتضاح لهم حيث يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغويتني على الكفر ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ ولقاء الله المراد به ما أعد لهم ربهم في الآخرة من ثواب أو عقاب، لقد خسر المكذبون بالآخرة لأنهم لم يقدّموا في دنياهم عملاً صالحاً يثابون عليه، ولم يظفروا بنعيم الآخرة بسبب كفرهم ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ وما كانوا مهتدين إلى الحق والصواب.

(١) اصطُلح على تسمية الساعة بالوقت الذي يقدر بـ ٦٠ دقيقة كما اصطُلح على تسمية الساعة بتلك الآلة التي توضع في اليد أو على الجدران والتي تحصي الثواني والدقائق والساعات. ومنذ خمسة عشر قرناً ـ عهد نزول القرآن ـ لم تكن الساعة معروفة آنذاك بوقتها وآلتها.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ فالله يقول: وإما أن نريك يا محمد بعض الذي نعدهم به من نصرك عليهم وإلحاق العذاب والذل بهم أو نتوفاك قبل أن ترى ذلك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فإنه لا مناص من عودتهم إلينا في الآخرة ليحاسبوا على أعمالهم ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ ثم الله شاهد على ما يفعلونه في دنياهم من الكفر والمعاصي ومعاقبتهم على ما يفعلون. وعبّر الله بفعل المضارع في قوله (يفعلون) الذي يفيد المستقبل أي أنه سبحانه سيعلم ما سيحدث من أفعالهم، أما ما مضى من أفعالهم فهو بعلمه أجدر.

لقد تحقق بعض الذي توعدهم الله في حياة رسوله محمد ﷺ بما لقوا من القحط والجوع سبع سنين، كما أُصيبوا بهزيمة نكراء يوم معركة بدر حيث قُتل سبعون من وجهائهم وأغنيائهم وأُسر الكثير منهم، ثم توالت الهزائم عليهم وتم النصر الكامل لرسول الله ﷺ.



﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

شرح المفردات

قُضي بينهم بالقسط: حُكِمَ بينهم بالعدل.

لكل أمة أجل: أي لكل أمة مُدّة عُمْر وبقاء محدودة على هذه الأرض.

أرأيتم: أخبروني.

بياتاً: ليلاً.

ويستنبئونك: ويطلبون منك الخبر عن العذاب الموعود.

وما أنتم بمعجزين: ما أنتم جاعلين الله عاجزاً عنكم غير قادر على إدراككم.

لافتدت: قدمت فدية وعوضاً.

أسرّوا الندامة: أخفوا آثار الندم والأسف على ما فعلوا من الظلم.

إنذار للكافرين من عذاب الآخرة

بعد أن بيّن الله حال المشركين مع رسوله محمد ﷺ انتقل إلى بيان حال الأنبياء السابقين مع أقوامهم وما حل بأقوامهم جزاء كفرهم:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ أي ولكل أمة من الأمم الماضية رسول من الله أرسله إليهم بشريعة خاصة بهم يدعوهم إلى عبادة الله والعمل بشريعته ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُم قُضِيَ بَيْنَهُم بِالقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ فإذا جاء رسول الله إليهم بالبيّنات والحجج الدالة على صدقه فآمن من آمن، وكفر من كفر قضى الله بينهم بالعدل فحكم بنجاة المؤمنين وهلاك الكفرة ولا يظلم ربك أحداً، وهذا التفسير على معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقد يكون المعنى عما سيجري يوم القيامة: ولكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول من الله تُنسب إليه، فإذا جاء رسولهم وهم في موقف الحساب أمام ربهم وشهد عليهم بالكفر أو الإيمان قضى الله بينهم بالعدل فأثاب المؤمنين، وعاقب الكافرين، وهذا التفسير على معنى قوله تعالى: ﴿ وَجِاْيٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ أي ويقول كفار قريش لرسول الله ومن اتبعه من المؤمنين على سبيل الاستبعاد والاستهزاء: متى يقع هذا العذاب علينا الذي تعدوننا به إن كنتم صادقين في هذا الوعيد؟ هنا يأتي الجواب من الله:

﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفعاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي قل لهم يا محمد: ليس بيدي إنزال عقاب الله بكم لأني لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً إلا بإذنه ومشيئته فكيف أملكه لغيري؟ وكيف أطّلع على ما لم يطلعني عليه ربي فأخبركم بالموعد الذي حدده لعقابكم وعذابكم؟ ويتابع الله قوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾[1] أي لكل قوم ميقات

(١) الأجل: الوقت المحدد

لانقضاء أعمارهم ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُم فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فإذا جاء الوقت المحدد لهلاكهم لا يمهلون فيؤخَّرون برهة من الزمن ولا يتقدم أجلهم عن الوقت الذي عيّنه الله.

تأمّل قوله تعالى مخاطباً رسوله محمداً: ﴿قُل لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا ولا نَفْعاً إلاّ ما شَاءَ اللَّهُ﴾ هذه الآية فيها نهي وتوجيه لمن يستغيث برسول الله عند المصائب التي لا يقدر على كشفها إلاّ الله، فكيف يطلب الإنسان من نبيّ من الأنبياء أو من أحد من الصالحين ما هو عاجز عن تلبية دعائه، ويترك الدعاء من رب الأرباب الذي هو وحده القادر على كشف البلاء؟ وكيف يتوجه بعض الناس إلى قبور الأولياء والصالحين ويتمسحون بأضرحتهم يطلبون منهم الحوائج والشفاء من أمراضهم وهم ليس بيدهم شيء؟ بل كُلّ ذلك بيد رب العالمين، وفي هذا المعنى جاء في القرآن ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧].

ويتابع القرآن فيردّ على المشركين الذين طلبوا تعجيل العذاب لهم إنكاراً له واستخفافاً به: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إنْ أَتَاكُم عَذَابُهُ بَيَاتاً أو نَهاراً﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: أخبروني إن أتاكم عذاب الله ليلاً وأنتم عنه غافلون أو أتاكم نهاراً وأنتم مشغولون في تحصيل معاشكم ﴿مَاذَا يَسْتَعجِلُ مِنْهُ المجرِمُونَ﴾ الاستفهام هنا للإنكار المتضمن النهي. والمعنى: أي شيء يجعل المجرمين يستعجلون نزول العذاب؟ فالعذاب كله مر المذاق تنفر منه النفوس وتأباه الطبائع السليمة، فلا موجب لاستعجاله. وقد وصفهم الله بالإجرام لأنهم يشركون بالله ويستبيحون المعاصي ومن شأن المجرم أن يخاف العقاب على إجرامه ﴿أَثُمَّ إذا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ﴾ أي أهنالك إذا وقع العذاب بكم حقيقة صدّقتم به في حال لا ينفعكم فيها التصديق ﴿آلآنَ وَقَدْ كُنْتُم به تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي وقيل لهم حينئذ: آلآن تصدّقون به وقد كنتم قبل الآن تستعجلونه تكذيباً وإنكاراً؟

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ﴾ثم يقال للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله، يقال لهم إهانة وتبكيتاً على لسان ملائكة العذاب: تجرّعوا عذاب الله الدائم لكم أبداً ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إلاّ بمَا كُنْتُم تَكْسِبُونَ﴾ هنا إثبات لعدل الله وأنه لا يظلمهم في ذلك العذاب لأن ما حلّ بهم هو بسبب ما كانوا يعملون في حياتهم من الذنوب والآثام.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي ويطلب المشركون منك يا محمد الخبر عن الذي يراود أنفسهم من عذاب الله فيقولون: أَحَقٌّ ما تقول وما تعدنا به من عذاب الله في الدار الآخرة جزاء ما كنا نكسب من معاصي الله؟ ﴿قُل إِي وَرَبّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ إي: حرف بمعنى نعم، والمعنى: نعم وأقسم بربي إنه لحق، وهذه الجملة من القرآن مؤكّدة بعدة مؤكدات: القسم، وحرف إنّ المؤكدة، واللام الداخلة على كلمة حق ﴿وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي وما أنتم بمفلتين من عذاب الله ولا تستطيعون الفرار لأنكم في قبضته وسلطانه وملكه.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ به﴾ أي ولو أن لكل نفس ظالمة بسبب عصيانها لأوامر ربها، لو أنها تملك جميع ما في الأرض من أموال ومقتنيات لدفعته فدية لتفتدي نفسها من العذاب الذي أحاط بها ولكن هيهات أن يُقبل منها ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ﴾ وأخفوا الندامة على ما فعلوا في حياتهم الدنيا من الظلم، لا تصبّراً ولا تجلداً بل لأنهم بُهتوا وصعقوا عندما رأوا هول العذاب الذي نزل بهم، فلم يقدروا على النطق بشيء سوى إسرار الندم والحسرة على ما فات ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالقِسْطِ وَهُم لا يُظْلَمُونَ﴾ وحكم الله بينهم بالعدل وهم لا يظلمون بأي وجه من الوجوه.

﴿ألاَ إنّ لِلَّهِ مَا في السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ هنا يبين القرآن أن الله وحده هو الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهما من كائنات ومخلوقات فليس للكافر شيء يملكه في الحقيقة حتى يفتدي به من عذاب الله. وصدّرت الآية بحرف التنبيه (ألا) لتنبيه الغافلين إلى هذه الحقيقة ﴿ألا إنّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي أن كل ما وعد الله به حق على لسان

رسله ومن جملة ذلك: البعث والحساب، ووعيده الكفار بعذاب الدنيا قبل الآخرة، هذا وقد أُعيد حرف التنبيه (ألا) للاهتمام بمضمون ما وعد الله ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكنّ أكثر الناس الذين أُرسلْتَ إليهم يا محمد لا يعلمون حقيقة الأمر لجهلهم وقصور عقولهم واستيلاء الغفلة على قلوبهم.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهو الله سبحانه بيده الحياة والموت يحيي من يشاء إحياءه، ويميت من يشاء إماتته، وإليه ترجعون جميعاً بعد الموت ليحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

شرح المفردات

موعظة: وصية تدعو إلى الحق والخير.

وشفاء لما في الصدور: شفاء لما في النفوس من العقائد الفاسدة ونوازع الشر.

وهدى: أي الرشاد إلى الحق والخير.

أرأيتم: أخبروني.

تفترون: تكذبون.

تتلو: تقرأ.

شهوداً: رقباء مطلعين عليه حافظين له، وشهود جمع شاهد، وأخبر الله عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم.

تفيضون فيه: تشرعون فيه.

ما يعزب: ما يغيب وما يخفى.

مثقال: ما يوازن الشيء.

القرآن هدى وشفاء لأمراض النفس

وبعد الحديث عن المشركين وما ينتظرهم في الآخرة من عذاب، تأتي الآيات التالية وفيها نداء من الله للناس للعمل بالقرآن لما يحتويه من فوائد جليلة وفضائل جمة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ أي قد جاءكم كتاب من عند الله وهو القرآن الجامع لكل ما تحتاجون إليه من موعظة حسنة تصلح كل أموركم، والموعظة هي التذكير والنصح بالتزام الحق والخير واجتناب الشر، وهذه الموعظة من ربكم، وقد جاء وصف الله بصفة الربوبية لأنه هو الذي تكفّل بتربية الناس وتوجيههم إلى ما فيه صلاحهم ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ والمراد بالصدور النفوس كما هو شائع في الاستعمال.

فالقرآن شفاء للنفوس من الأخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والآفات الاجتماعية من ظلم وكبرياء ونفاق وحقد وحسد.

والقرآن شفاء للنفوس مما يعتريها من القلق والحزن والهمّ من جرّاء مصائب الحياة، وذلك بما وعَدَ الله الصابرين بجزيل الثواب يوم القيامة.

فكما أن جسم الإنسان يصيبه المرض فيلجأ المريض إلى الطبيب طلباً للعلاج فكذلك النفس الإنسانية تصاب بأمراض جاء القرآن لعلاجها.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والقرآن يرشد الناس إلى الحق والخير كما أنه سبب الرحمة للمؤمنين الذين امتثلوا إلى ما فيه من الأحكام واتبعوا وصايا ربهم.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ وقد فُسِّر فضل الله ورحمته بالقرآن، ومن المفسرين من قال: فضل الله بالقرآن ورحمته بالإسلام، وقيل: فضل الله بالقرآن ورحمته أن جعلكم من أهله. والمعنى: قل يا محمد لقومك بأن يفرحوا بما جاءهم من القرآن والإسلام ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وفضل الله ورحمته هما خير مما يجمع الناس من أموال وسائر متاع الدنيا.

وهذا الفضل: أخروي ودنيوي، أما الأخروي فظاهر وهو النعيم الدائم في الجنة، وأما الدنيوي فلأن كمال النفس وصحة الاعتقاد والإقبال على الأعمال الصالحة المستفادة من القرآن تكسب السعادة النفسية والعيش الهنيء.

ثم وبّخ الله المشركين على ما حرّموه على أنفسهم من رزق الله وجعلوا بعضه حلالاً وبعضه حراماً قال تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُم مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُم مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً﴾

أي قل يا محمد للمشركين: أخبروني عما خلق الله لكم من الرزق والأطعمة، لِمَ فرّقتم هذه الأطعمة إلى حلال وحرام حسب أهوائكم دون أن تأخذوا بشرع الله؟ ﴿قُل آللَّهُ أَذِنَ لَكُم أم على اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وقل لهم: هل الله أذن لكم بأن تحرّموا ما حرمتم أم أنكم تكذبون على الله؟

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِين يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ أي ماذا يظن هؤلاء الذين يكذبون على الله بقولهم: هذا الطعام أحلّه الله، وهذا حرّمه، أيظنون أن الله سيتركهم بلا عقاب يوم القيامة؟ لا، بل سيجازون على افترائهم الكذب على الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ فالله ذو فضل على الناس لأنه أنعم عليهم بالعقل الذي يميزون به بين الحق والباطل، والحسن والقبيح، ورحمهم بإنزال الشرائع التي فيها

صلاحهم بواسطة رسله وأنبيائه، ورزقهم من الطيبات من المآكل ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ أي أن أكثر الناس لا يشكرون الله على هذه النعم الجليلة التي أنعمها عليهم.

علم الله المحيط بالكون

ثم يبيّن القرآن إحاطة علم الله بأحوال الناس كلها: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أي وما تكون يا محمد في أمر من أمورك أو في حال من أحوالك، وما تقرأ على قومك من آيات القرآن ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُم شُهُوداً﴾ أي ولا تعمل يا محمد أنت وقومك من عمل إلا والله شاهد على أعمالكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ إذ تخوضون وتندفعون في ذلك العمل.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ أي وما يغيب عن علم ربك مثقال ذرة سواء أكانت في الأرض أو في السماء، والذرة أصغر جزء في العنصر البسيط، كما اصطلح على تسمية الذرة في العصر الحاضر على الوحدة المتناهية في الصغر التي لا تُرى بالعين المجردة، وكل كائن في الأرض أو في السماء مكون من ذرات خاصة به ﴿وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ﴾ أي ولا يغيب عن علم ربك أصغر من الذرة ولا أكبر منها. وفي زمن نزول القرآن لم يكن أحد يعرف أن هناك ما هو أصغر من الذرة وكان الناس يعتقدون أن الذرة هي الجزء الذي لا يتجزأ لأنها أصغر ما يقع عليه البصر، ومنذ زمن ليس بالبعيد توصل العلماء إلى تحطيم الذرة ووجدوا أن هناك ما هو أصغر منها ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ والكتاب المبين قد يراد به اللوح المحفوظ وهو مستودع علم الله، أو يراد بالكتاب كناية عن علم الله تعالى.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

شرح المفردات

أولياء الله: هم أهل الإيمان والتقوى والإحسان.

يتقون: التقوى هي تجنب عذاب الله وذلك بالعمل بما أمر والانتهاء عما نهى عنه.

صفات أولياء الله

وبعد أن وبّخ القرآن الذين يفترون على الله الكذب ويحلّون ويحرمون ما لم يأذن به الله جاءت الآيات هنا تتكلم عن أولياء الله، وهم أهل الإيمان والتقوى، وما أعد الله لهم من ثواب في الآخرة:

﴿ألا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ صُدِّرت الآية بحرف التنبيه (ألا) لتقرير مضمونها وإثارة الانتباه لها لما فيها من البشائر. والأولياء: جمع وليّ، والوليّ لغة من معانيه: القريب، والمراد بأولياء الله: المؤمنون المقرّبون من الله لمزيد تقواهم. والقُرب من الله سبحانه إنما يكون إذا كان القلب مستغرقاً في نور معرفة الله، فإن رأى المؤمن رأى دلائل قدرة الله، وإن سمع، سمع آيات الله، وإن نطق، نطق بالثناء على الله، وإن تحرك، تحرك في خدمة الله، وإن اجتهد، اجتهد في طاعة الله، فحينئذ يكون في غاية القُرب من الله ويكون وليّا له.

وقيل في معنى ﴿أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ هم الذين يتولون ربهم بالطاعة ويتولاّهم بالكرامة، وهم الراضون بقضاء الله، والصابرون على البلاء، والشاكرون على النعماء، وهم من توالت أفعالهم على موافقة الحق.

وقيل: وليّ الله من يكون آتياً بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل، ويكون آتياً بالأعمال على وفق ما وردت به الشريعة.

وقيل: هم قوم يُذكر الله لرؤيتهم لما يظهر على وجوههم من أمارات الخير والتقوى، وقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء، قيل من هم يا رسول الله لعلّنا نحبهم؟ قال: هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس[1] ثم قرأ ﴿ألا إنّ أولياء اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ومن سمات الأولياء أنهم يقومون بالنوافل من الصلوات التي كان يقوم بها رسول الله زيادة على الفرائض التي أوجبها الله عليهم، ويصومون مع شهر رمضان يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع وغيرهما من الأيام التي رغّب بها رسول الله ﷺ، وهذا معناه أنّ هذا الإنسان قد دخل في مقام الود مع الله فيفيض عليه ما يشاء من أنواره وتأييده وينال رضوانه سبحانه، وفي الحديث القدسي الذي رواه رسول الله ﷺ عن ربه:

«من عادى لي وليّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وَرِجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه..»[2].

ومن سمات أولياء الله زهدهم في الدنيا، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله»[3].

هؤلاء أولياء الله الذين خصهم الله برحمته حيث يقول في شأنهم: ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا خوف عليهم في الدنيا من مكروه يتوقع، فإن الله تعالى منحهم نعمة الطاعة والرضا في دنياهم، فإن أقبلت عليهم نعمة الصحة والرخاء

---

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه ابن ماجه.

شكروا الله، وإن حُرموا من ذلك أو بعضه رضوا بقضاء الله وصبروا على ما أصابهم، كما أنهم لا خوف عليهم من أهوال موقف الحساب يوم القيامة وعذاب الآخرة فقد نجاهم الله من عذاب جهنم، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم في الدنيا، فقد منّ الله عليهم في الآخرة بنعيم الجنة.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ هنا وصف مجمل لصفات أولياء الله الذين توفّر فيهم الإيمان الصادق، وكانوا يتقون الله بالخوف منه وأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ اختلف المفسرون في البشرى التي بشر الله بها هؤلاء القوم في الدنيا وما هي صفتها، فقال بعضهم: هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو تُرى له. فقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له»[1] وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة.

وأما بشراهم في الآخرة فقد جاء في القرآن: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا تغيير ولا خُلف لمواعيده وذلك أن مواعيده بكلماته فإذا لم تبدل الكلمات لم تبدّل المواعيد ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي وما وعد الله به المؤمنين في الآخرة من الثواب هو فوز عظيم لهم.

وكلمة أخيرة حول أولياء الله وهي أن الولاية ليست بالادعاء ولا بالتزيّي بزيّ الزاهدين ولا بالإسراف في الزهد، ولا بالعقل المسلوب، ولكنها بالإيمان الصادق والعمل بما فرضه الله، أما أولئك الذين يدّعون أنهم مستغرقون في حضرة الله وأن التكاليف الشرعية قد سقطت عنهم فلذلك لا يشعرون بما يصنعون من حلال أو حرام

(١) رواه الإمام أحمد.

فهم في الحقيقة شياطين الإنس يتخذون من هذا الزعم وسيلة لاقتراف المنكرات والتدجيل على الناس لسلبهم أموالهم.

هذا وقد اشتهرت بعد عصر السلف الصالح فكرة أن الأولياء عالم خيالي غير معقول، وأن لهم من الخصائص في عالم الغيب والتصرف في ملكوت السماوات والأرض، هذه الفكرة غرسها بعض غلاة المتصوفة الذين لعب بعضهم بعقول الناس، واستغلوا سذاجتهم وأرهقوا الناس بأذكار لله لم يقم بها رسول الله، ورسول الله كما هو معلوم هو سيد الأولياء أجمعين.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

شرح المفردات

العزة: الغلبة.

يدعون: يعبدون.

يخرصون: يكذبون.

لتسكنوا فيه: لتطمئنوا وتستقروا فيه بعد عناء العمل بالنهار.

والنهار مبصراً: أي مضيئاً لتتحركوا فيه وتهتدوا في ضوئه إلى قضاء حوائجكم.

سلطان: حجة وبرهان.

الكون ملك لله وتنزهه عن الولد

ثم تأتي الآيات التالية تواسي رسول الله من أحزانه بسبب ما كان يلاقيه من قومه من تكذيب واستهزاء وإعراض عن دعوته:

﴿ولا يَحْزُنكَ قَوْلُهُم﴾ أي لا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك وتآمرهم على إبطال دعوتك، ووصفك تارة بأنك ساحر، وتارة أخرى بأنك شاعر أو مجنون. ويحسن الوقوف على كلمة (قولهم) لئلا يتوهم من يسمع ما بعدها من القرآن بأنها من أقوال الكفار. ثم يستأنف الله الكلام بقوله: ﴿إنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ أي أن الغلبة لله جميعاً في السماء والأرض لا ينازعه سبحانه في سلطته أحد من الناس، فهو القادر على أن يغلب الكفار ويقهرهم ويعصمك منهم ﴿هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ فهو سبحانه السميع لأقوالهم، العليم بأحوالهم.

﴿ألا إنَّ لِلَّهِ مَنْ في السَّمٰواتِ وَمَن في الأَرْضِ﴾ لفظ (من) اسم موصول شأنه أن يطلق على العقلاء، والمعنى: ألا إن لله من في السماء من ملائكة، ومن في الأرض من إنس وجن هي كلها ملك لله وحده، وتخصيصهم بالذكر للإيذان بأن غيرهم أوْلى بملكية الله تعالى لهم، فإنهم كلهم تحت سلطانه ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ (ما) استفهامية، والمعنى: وأي شيء يتبع من يقول إن لله شركاء ويخصونهم بالعبادة، وهم ليسوا شركاء الله في الحقيقة ﴿إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ﴾ وهم لا يتبعون إلا أوهاماً باطلة ﴿وَإنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ وإن هم إلاّ يكذبون بادعائهم بأن لله شركاء.

ثم بيّن القرآن جانباً من نِعَمِ الله على عباده:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي هو الله الذي جعل لكم

الليل ـ أيها الناس ـ لتسكنوا فيه وتستريحوا من عناء العمل وتستردوا فيه نشاطكم ﴿والنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ وجعل الله لكم النهار مضيئاً لتهتدوا في ضوئه إلى تحصيل معاشكم وقضاء حاجاتكم. وفي قوله سبحانه: ﴿والنَّهار مُبْصِراً﴾ استعارة بلاغية لأن الناس هم الذين يبصرون فيه لا النهار ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ والآيات هي الدلائل على وحدانية الله. وفي قوله سبحانه: لقوم يسمعون، تعريض بالذين لم يهتدوا لأنهم بمنزلة الصم فلا يقبلون الهداية، كقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠].

ثم شرع القرآن في تفنيد مزاعم من نسبوا الولد لله تعالى:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ الظاهر أن الضمير في (قالوا) يعود إلى المشركين العرب الذين تخصهم السورة بالذكر، فقد زعم المشركون أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله، وقد تشمل الآية غيرهم ممن نسبوا الولد إلى الله ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الغَنِيُّ﴾ تنزيهاً لله عن ذلك الزعم فهو الغني على الإطلاق المستغني عن كل معين، كما تستعينون أنتم البشر بأبنائكم، وهو دائم الوجود فلا يحتاج إلى ابن لقضاء مصالحه وتنمية ثروته كما هو شأنكم، والله سبحانه لا يحتاج إلى شيء من ذلك لأنه هو الغني عن كل شيء ﴿لَهُ مَا في السَّمٰواتِ وَمَا في الأَرْضِ﴾ والله سبحانه له ما في السماوات وما في الأرض خلقاً ومُلكاً وتصرفاً فلا يحتاج إلى إعانة ولد ﴿إن عِندَكُم مِن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ إن: هي نافية بمعنى «ما» والسلطان: هو الحجة والبرهان، والمعنى: ما عندكم دليل ولا برهان على ما زعمتم من أن لله ولداً ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي أتقولون على الله قولاً لا حقيقة له ولا دليل لكم به بنسبة الشريك والولد لله سبحانه، وهنا استفهام يراد به التوبيخ والتقريع، لأن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة وليس من العلم في شيء، وأن العقائد لا بد أن تقوم على البرهان والحجة لا على التقليد للآباء.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي قل يا محمد إن الذين يختلقون على الله الكذب ويزعمون أن له ولداً لا يفوزون بخير عند الله، فالنار مصيرهم يوم القيامة والجنة محرّمة عليهم ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي إن ما يتمتعون وينتفعون به باقٍ في الدنيا من السيادة والجاه ووفرة المال، كل ذلك لا ينفعهم عند الله في الآخرة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ثم إلى الله مرجعهم يوم القيامة ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ثم يذيقهم الله العذاب الشديد بنار جهنم بسبب كفرهم وافترائهم على الله بأن لله ولداً.

﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ (٧٤)﴾

شرح المفردات

واتل: واقرأ.

نبأ: النبأ هو الخبر الذي له شأن.

كَبُر عليكم مقامي: عَظُمَ وثَقُلَ عليكم قيامي ووجودي بينكم.

تذكيري: وعظي ونصحي.

أجمعوا أمركم: اعزموا عليه.

ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة: ثم لا يكن أمركم مستوراً عليكم بل أظهروه وجاهروني به.

اقضوا إليّ: أدّوا إليَّ ذلك الأمر الذي تريدون بي.

ولا تُنظِرون: ولا تمهلوني بل عجّلوا أشدّ ما تقدرون عليه.

من المسلمين: من المنقادين لحكم الله الخاضعين له.

فنجّيناه: فأنقذناه.

وجعلناهم خلائف: وصيّرنا الناجين يخلفون في الأرض من هلكوا بالطوفان.

نطبع: نختم.

قصة نوح عليه السلام

وبعد أن بيّن القرآن بطلان من يزعم بأن لله ولداً شرع بعد ذلك في الكلام على بعض رسل الله وما حلّ بأقوامهم الكافرين من هلاك، ونجاة رسل الله ومن معهم من المؤمنين، وفي ذلك تثبيت لقلب رسول الله محمد ﷺ ومن آمن معه وإنذار للمشركين:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي واقرأ يا محمد على هؤلاء المشركين خبر نبي الله نوح عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ: يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ أي حين قال نوح لقومه: إن كان عَظُمَ عليكم مقامي بينكم ﴿وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وشق عليكم وعظي إياكم بحجج الله، فعزمتم على قتلي أو طردي من بلدكم ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ هنا جواب الشرط، أي فعلى الله وحده فوّضت أمري واعتمدت عليه ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي فأحكموا أمركم واعزموا عليه في شأني واجعلوا معكم شركاءكم فيما تريدون بي من السوء. والشركاء يحتمل أن يكون المراد بها أصنامهم التي سموها آلهة وجعلوها شريكة لله وهي لا تضر ولا تنفع، وإما أن يكون المراد من الشركاء من كان على مثل مذهبهم في العقيدة ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ

﴿عَلَيْكُم غُمَّةً﴾ أي ثم لا يكن أمركم الذي تدبّرونه من الكيد بي خفيًّا مستوراً ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ ثم أدوا ما تريدون بي من الأذى والسوء وافرغوا لمخاصمتي ﴿وَلاَ تُنْظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني بل عجلوا ذلك بأسرع ما تستطيعون من غير انتظار، وإنما خاطبهم نوح بذلك إظهاراً لعدم المبالاة بهم وأنهم لن يجدوا سبيلاً للإضرار به، كما أنه قال هذا الكلام ثقة بما وعده الله من حفظه.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُم فَمَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ﴾ أي فإن أعرضتم عما دعوتكم إلى الحق، وما بلّغتكم من رسالة ربكم إليكم، فهذا الإعراض منكم لا موجب له لأنني لا أطمع في أموالكم ولم أطلب أجراً على وعظي إياكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ أي وما أجرى على وعظي إياكم إلاّ على الله الذي أرسلني إليكم، فهو الذي يثيبني على ذلك. والوعظ إذا كان خالصاً لوجه الله خالياً من أي منفعة ذاتية كان أشد أثراً على القلوب ﴿وَأُمِرْتُ أن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرني ربي أن أكون من المذعنين له بالطاعة، المنقادين لأمره ونهيه، الخاضعين له.

﴿فَكَذَّبُوه فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ في الفُلْكِ﴾ أي إن نوحاً كذبه قومه فيما دعاهم إليه من عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام بعدما قضى دهراً طويلاً في وعظهم فعاقبهم الله بالطوفان ونجى الله نوحاً ومن آمن معه من الغرق حيث ركبوا في السفينة التي أمر الله نوحاً بصنعها ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي وجعل الله هؤلاء المؤمنين الناجين يخلفون في الأرض من هلكوا بالطوفان بسبب كفرهم وتكذيبهم بحجج الله الدالة على وحدانيته وأنه وحده الجدير بالعبادة ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ فانظر يا محمد وتأمل كيف كان عاقبة تكذيبهم نوحاً وما أنذرهم به من العذاب، حيث أهلكهم الله بسبب كفرهم، وهذا إنذار لكفار قريش من أن يحل بهم الهلاك كما حل بقوم نوح.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِم﴾ ثم أرسل الله من بعد نوح رسلاً منه إلى أقوامهم، منهم: هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ﴿فَجَاءُوهُم بِالبَيِّنَاتِ﴾

أي فجاء هؤلاء الأنبياء أقوامهم بالحجج الدالة على صدقهم بأنهم رسل من عند الله، وبلّغوهم ما أرسلهم الله به إليهم من الهدى ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسل الله بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أُرسلوا إليهم، وكانت حالتهم بعد مجيء رسل الله كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث الله إليهم رسولاً ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ والطبع في اللغة معناه الختم، وقد استعمل هنا مجازاً عن عدم تأثير البينات من الهدى على قلوبهم. والمعنى: كما ختمنا على قلوب أولئك الكفرة السابقين لأنهم لم يقبلوا من أنبياء الله ما دعوهم إليه من الهدى، كذلك يختم الله على قلوب المجاوزين الحد في الكفر وتكذيب رسل الله.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

شرح المفردات

بعثنا: أرسلنا.
وملئه: الملأ أشراف القوم.
يفلح: يفوز.
لتلفتنا: لتصرفنا وتبعدنا.

الكبرياء: العظَمة والمُلك.

لا يصلح: لا يُثبت ولا يؤيد.

ويحق الحق بكلماته: يثبّته ويظهره بأوامره ووحيه.

قصة موسى عليه السلام مع فرعون

ثم تنتقل بنا الآيات إلى الكلام عن جانب من قصة موسى وما جرى بينه وبين فرعون من أحداث:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وهارونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ أي ثم أرسل الله موسى وهارون بعد أولئك الرسل الذين تقدّم ذكرهم، أرسلهما الله إلى فرعون وأشراف قومه مؤيَّدين بالمعجزات الدالّة على أنهما رسولان من عند الله. ولقد طلب فرعون من موسى دليلاً يشهد أنه رسول من عند الله. فألقى موسى عصاه من يده فإذا هي ثعبان يتحرك، وأخرج يده من جيبه[1] فإذا هي ناصعة البياض تتلألأ للناظرين. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قوماً مُجْرِمِينَ﴾ أي استكبر فرعون وأشراف قومه عن ما دعاهم موسى وهارون للإيمان برب العالمين. والسين والتاء في (استكبروا) للمبالغة في التكبر، وكانوا قوماً راسخين في الإجرام وهو الظلم والفساد في الأرض والذنوب العظام.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي فلمّا جاءهم موسى بالدين الحق مدعوماً بالمعجزات الدالة على أنه رسول من عند الله ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قالوا: إن الذي جئت به يا موسى هو سحر مؤكد واضح، قالوا ذلك عناداً منهم، وتعبيراً منهم عن رفضهم الانصياع إلى الحق.

﴿قَالَ مُوسَى: أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾ قال لهم موسى مستنكراً قولهم وموبخاً إياهم: أتصفون الحق الذي جئتكم به من عند الله بأنه سحر، وهي معجزات أيّدني الله بها؟ ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ ولا ينجح الساحرون ولا

(1) جيبه: فتحة القميص الذي يدخل منه الرأس.

يفوزون بخير، هذا لو أن موسى ساحر لما طعن في أحوال السحرة إذ صاحب الصنعة لا يطعن في صناعته.

أجاب القوم موسى على ما دعاهم إليه من الإيمان برب العالمين ﴿قَالُوا: أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي أجئتنا يا موسى بهذا الدين لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا من عبادة فرعون وسائر الآلهة لكي نعبد إلٰهك؟ ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ ولكي تكون لك يا موسى ولأخيك هارون السلطة والحكم وتتوليا المُلْكَ علينا؟ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ وما نحن بمصدّقين بالدين الذي تدعونا إليه من عبادة الله وحده.

لقد كان رفض فرعون وأشراف قومه دعوة موسى قائماً على أمرين:

أولاً: إصرارهم على تقليد آبائهم في معتقداتهم والتي بسببها يقوم عليه نظامهم السياسي.

أما تقليد الآباء في معتقداتهم الدينية من دون فكر ولا تمحيص فهو آفة العقل الإنساني، لأن العقيدة الدينية يجب أن تأخذ حظها من الدراسة وأن تكون قائمة على الاقتناع التام بصحتها، والغريب أن كثيراً من الأديان المنتشرة في العالم تقوم على تعدد الآلهة كما أن بعضها يشتمل على كثير من الخرافات والأساطير.

أما السبب الثاني لرفضهم نبوّة موسى فهو الخوف من الانتقاص من سلطتهم الدنيوية، وهو من الأسباب الرئيسية للطغاة في كل عصر لمقاومة كل حركة إصلاحية لأنها تقضي على كثير من الامتيازات التي هي في حوزتهم. وهذا يتمثل أيضاً في كفار قريش الحريصين على عقائدهم الموروثة ودوام سلطتهم الدنيوية.

وبعد أن رأى فرعون إصرار موسى ومثابرته على الدعوة إلى عبادة الله وحده وما قدّم من المعجزات التي تؤيد دعوته، توجه فرعون إلى خاصته وخاطبهم:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي اجمعوا لي من جميع أنحاء

مملكتي كل ساحر واسع العلم بفنون السحر كي يعارض ما جاء به موسى.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُم مُلْقُونَ﴾ هنا كلام فيه حذف، والتقدير: امتثل خاصة فرعون فيما دعاهم إليه وأسرعوا في إحضار السحرة فلما جاء السحرة والتقوا بموسى خيّروه إما إن يلقي سحره أولاً على ما يظنونه في موسى من أنه ساحر، وإما أن يكونوا هم البادئين، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، فقال لهم موسى على سبيل التحدي: ألقوا ما بأيدكم من السحر، وذلك لإعطائهم فرصة كاملة لإظهار ما في طاقتهم من السحر باطمئنان كامل.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى: مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾ أي فلمّا ألقوا ما بأيديهم من العصيّ والحبال سحرت أعين الناس، عندئذ قال لهم موسى: إن الذي جئتم به أيها السحرة هو السحر بعينه، وهذا ما ذكره القرآن عن السحرة في سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [آية: ١١٦].

أمام مرأى هذا السحر تابع موسى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي إن الله سيبطل هذا السحر ويُذهبه إنّ الله لا يصلح عمل من سعى في الأرض فساداً وعمل فيها بعصيان الله ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ويثبت الله الحق ويقويه بأوامره وكلماته التشريعية التي أنزلها على أنبيائه ولو كره المجرمون إحقاق الحق ومنهم فرعون وخاصته.

ولم يذكر القرآن في هذه السورة ما جرى بعد ذلك اكتفاء بما ذكره في سورة الأعراف حيث قال سبحانه: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [آية: ١١٧]. وجاء في سورة الشعراء: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ. قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآيات: ٤٥-٤٧]. فالعصا التي كانت في يد موسى انقلبت إلى ثعبان وابتلعت جميع أدوات السحرة.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

شرح المفردات

ذريّة من قومه: جماعة من قومه، والذرية في أصل اللغة صغار الأولاد وتُستعمل عرفاً للصغار والكبار.

أن يفتنهم: أي يبتليهم ويعذبهم ليحملهم على الرجوع عن الإيمان.

لَعالٍ في الأرض: أي عاتٍ متكبر.

لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين: أي لا تجعلنا موضع عذاب لهم بأنْ تسلّطهم علينا.

تبوّءا: اتّخذا، والمباءة هي المكان الذي ينزل به الإنسان ويسكن فيه.

واجعلوا بيوتكم قِبلة: أي اجعلوها أماكن للصلاة.

اطمس على أموالهم: الطمس هو المحو، أي أهلكها واجعلها غير صالحة للانتفاع بها.

اشدُدْ على قلوبهم: أي اختم عليها واجعلها قاسية لا تنشرح للإيمان.

خوف المؤمنين من بطش فرعون

وبعد أن ابتلعت عصا موسى حبال السحرة وعصيّهم التي استخدموها في سحرهم، آمن قسم من بني إسرائيل بعد أن رأوا معجزة موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي فما آمن بالله وصدّق بنبوة موسى إلاّ جماعة من بني إسرائيل ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ أي وكان إيمان هؤلاء مصحوباً بخوف شديد من فرعون وأشراف قومهم الجبناء، المرائين لفرعون، من أن يعذبوهم ويفتنوهم عن دينهم. هذه الآيات فيها مواساة لرسول الله محمد ﷺ لما كان يلاقيه من آلام بسبب إعراض قومه عن الإيمان باستثناء القليل منهم الذين يلاقون الأذى والاضطهاد من كفار قريش بسبب إيمانهم، فبيّن الله لرسوله محمد بأن له أسوة بما جرى لموسى عليه السلام ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾ والعلوّ مستعار للغلبة والاستبداد والتكبر، أي إن فرعون غالب الناس قاهر لهم في أرض مصر ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ وإنه من جملة من دأبوا على تجاوز الحد في الظلم والفساد وسفك الدماء.

﴿وقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُم آمَنْتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُسْلِمِينَ﴾ أي قال موسى لأولئك الذين أظهروا إيمانهم: يا قوم إن كنتم أقررتم بوحدانية الله وربوبيته للكون فلا تخشوا سواه وفوضوا الأمر إليه واعتمدوا عليه إن كنتم خاضعين له مستسلمين له، فحصول التوكل على الله متوقف على حصول إيمانهم وإسلامهم.

أجاب المؤمنون موسى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي على الله وحده اعتمدنا وفوضنا أمورنا إليه، لأن كل من اعتقد بأن كل ما في الكون ملك لله يصرفه حسب مشيئته امتنع أن يتوكل على غيره. ثم توجهوا إلى الله بالدعاء: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تجعلنا يا رب موضع عذاب للظالمين بأن تسلطهم علينا فيعذبونا أو يفتنونا عن ديننا ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وأنقذنا برحمتك يا رب من شرور القوم الكافرين بك إن أرادونا بسوء.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾ أي أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون عن طريق الوحي أن يتخذا لقومهما الذين آمنوا بمصر بيوتاً يسكنون فيها[1] ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُم قِبْلَةً﴾ وأن يجعلوا بيوتهم مساجد يصلّون فيها إلى جهة القبلة[2] بعيداً عن أعين فرعون وقومه حتى يأمنوا على أنفسهم من بطش فرعون ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ وأن يؤدوا الصلاة لله كاملة، والصلاة عماد الدين بها يخضع الإنسان لربه ويتذلل له ويدعوه ويشكره ويطلب المعونة منه ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وبشّر يا موسى المؤمنين بأن الله سيحفظهم من أذى فرعون وينجيهم من كيده.

وهنا نلحظ أن الأمر بالتبوّء هو لموسى وهارون حيث أمرهما الله باتخاذ البيوت لقومهما لأن ذلك من شأن الرؤساء والقادة وهذا ما جاء بصيغة المثنى، أما جعل هذه البيوت مصلى والدعوة إلى إقامة الصلاة فيها فجاءت بصيغة الجمع لأنها أمر مطلوب من الجميع. وأما البشرى فقد جاءت بالمفرد على لسان موسى لأنه الأصل في رسالة الله لبني إسرائيل.

وبعد أن يئس موسى من إيمان فرعون وأشراف قومه توجّه إلى ربه بالدعاء:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والزينة هي ما زاد عن ضروريات الحياة الدنيا كالحلي والثياب المزركشة والرياش الفاخرة والقصور الفخمة، تلك الزينة كانت من مظاهر الترف التي كان يرتع فيها فرعون وأشراف قومه، أما الأموال التي كانت في حوزة فرعون وأشراف قومه فتشمل الذهب والفضة والزروع والأنعام. ولقد أثبت التنقيب في آثار الفراعنة ما يؤكد ذلك حيث عثر

---

(١) يقول صاحب تفسير (التحوير والتنوير): فالذي يظهر أنّ هذه البيوت خيام أو أخصاص أمرهم الله باتخاذها تهيئة للارتحال وهي غير ديارهم التي كانوا يسكنونها في (جاسان) قرب مدينة فرعون، وقد جاء في التوراة ما يشهد بهذا التأويل في الفصل الرابع من سفر الخروج: إن الله أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل إلى البادية ليعملوا عيد الفصح ثلاثة أيام...

(٢) القِبلة: هي اسم لجهة الكعبة، وكانت قِبلةَ موسى وقِبلةَ كل الأنبياء.

على الكثير من أنواع الزينة والحلي والذهب، فالزينة تلهيهم عن اتباع ما يعظهم به موسى، والأموال التي في حوزتهم يسخرون بها الرعية لطاعتهم وإذلالهم.

وتابع موسى دعاءه: **﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا[1] عَنْ سَبِيلِكَ﴾** أي أعطيتهم يا رب هذه النعم ليشكروك عليها ويتبعوا سبيلك فكان عاقبة أمرهم أنهم كفروا وضلوا عن سبيلك، وهم لم يضلوا فقط بل أضلوا غيرهم، لذلك حملوا إثم ضلالهم وإثم إضلال غيرهم. ومن جملة دعاء موسى عليهم: **﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾** الطمس هو المحو والإزالة، أي ربنا أَهْلِكْ هذه الأموال التي استعبدوا الناس بها، أهلكها يا رب ليزول سلطانهم ويذلّوا، وقد قال بعض الرواة: إنها مسخت فمن كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجدها حجارة **﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾** أي اختم عليها واجعلها قاسية لا تنشرح للإيمان لاختيارهم الكفر وإصرارهم عليه **﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾** أي فلا يوفّقوا للإيمان حتى يروا رأي العين العذاب الأليم الذي هو عاقبتهم ليكونوا عبرة لغيرهم.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ أي قال الله تعالى: قد أجيب دعاؤكما، مع أن موسى هو الذي دعا عليهم، وفُسِّر ذلك بأن هارون كان يقول عند دعاء موسى: آمين، أي استجب يا رب، فيكون الدعاء منه أيضاً **﴿فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾** أي استمرّا في سلوك الطريق المستقيم ـ طريق الحق ـ الذي رسمه الله لكما ولا تسلكا طريق الجهلة الذين لا يعلمون الأمور على وجهها الصحيح ولا يذعنون للحق.

(١) **ليضلّوا: اللام الداخلة على يضلوا هي لام العاقبة.**

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)﴾

شرح المفردات

وجاوزنا ببني إسرائيل البحر: قطعناه بهم وخلّفناه وراءهم.

فأتبعهم فرعون: أي تبعهم حتى اقترب منهم.

بغياً وَعَدْواً: ظلماً واعتداء.

حتى إذا أدركه الغرق: أي حتى إذا أوشك على الغرق.

آلآن وقد عصيت: آلآن تؤمن حين أيقنت بالهلاك.

لمن خلفك: لمن بعدك من الناس.

آية: عبرة.

معجزة للقرآن

وبعد أن أخبر الله تعالى موسى وهارون باستجابة دعائهما على فرعون وقومه، أمرهما الله بأن يُخرجا بني إسرائيل من مصر، فخرجو سرّاً، ولمّا علم فرعون بخروجهم جمع جنده ولحق بهم إلى أن وصلوا إلى شاطىء البحر الأحمر على خليج السويس، فأدركهم فرعون وجنوده مع شروق الشمس، عندئذ أيقن بنو إسرائيل بالهلاك، فأوحى الله لموسى بأن يضرب بعصاه البحر ففعل، فانشقّ الماء وصار فيه اثنا عشر طريقاً يبساً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بين هذه الطرق كالجبال العالية، وسار بنو إسرائيل في الطرق المفتّحة لهم في البحر.

وصل فرعون إلى شاطىء البحر وأشرف على الموضع الذي عبر منه بنو إسرائيل فرأى طرقاً سالكة في البحر فسار فيها هو وجنوده خلف بني إسرائيل، ولما وصل موسى ومن معه من بني إسرائيل إلى البر أطبق الله البحر على فرعون وجنده فغرقوا جميعاً. هذه خلاصة ما جاء في القرآن في مواضع منه. وهنا في هذه السورة إشارة إلى بعض ذلك للاختصار بناء على ما سبق ذِكْرُهُ، قال تعالى:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي جعل الله بني إسرائيل يقطعون البحر ويخلفونه وراءهم ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً﴾ أي تبعهم فرعون وجنوده رغبة في الظلم والاعتداء عليهم ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ حتى إذا أدرك الغرق فرعون وعاين الموت وأدرك أنه لا نجاة له منه ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي قال فرعون: آمنت بأن لا معبود بحق سوى الإله الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المعترفين له بالعبودية، وأنا من الخاضعين له المستسلمين له.

لقد بالغ فرعون في إيمانه بربه والاعتراف بربوبيته حيث كرره بثلاث عبارات:
(١) آمنت (٢) أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل (٣) وأنا من المسلمين.

اعترف فرعون بذلك طمعاً في نجاته، ولكن لم ينفعه إيمانه عند حلول أجله، وهنا يأتي الجواب الإلهي له: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي الآن تؤمن حين يئستَ من الحياة، وأيقنت الموت، والحال أنك كنت في حياتك الدنيا من العصاة المفسدين في الأرض؟ لقد آمنت بعد فوات الأوان حين لا ينفعك الإيمان.

والتوبة لا تنفع عند معاينة الموت، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر حيث جاء فيه: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

[النساء: ١٨].

ويتابع الله خطابه لفرعون ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي اليوم ننقذ جسمك من الغرق ونطرحه على ناحية من الأرض بعد أن نسلب منه الروح دون سائر قومك المغرقين، والبدن هو الجسم بلا روح، وذكر البدن احتراس من أن يُظنّ بنجاته من الغرق حيًا ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ أي لتكون لمن وراءك من أهل عصرك وممن يأتي بعدهم عبرة لما ينتظر الطغاة ومن يدّعي الألوهية من مصير سيىء وهلاك.

وفي قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ معجزة للقرآن وإليكم البيان:

أولاً: أريد أن أوضح أن (فرعون) هو لقب يطلق على كل من تولى العرش على مصر القديمة.

ثانياً: يُستخلص من التوراة ومن التاريخ ومن الاكتشافات الأثرية في الأهرامات وغيرها أن هناك فرعونين في زمن موسى عليه السلام: الأول هو (رمسيس الثاني) ويطلق عليه (رعمسيس الثاني) الذي يمكن أن يسمى فرعون الاضطهاد، الذي اضطهد بني إسرائيل والذي ولد موسى عليه السلام في عهده وتربى في قصره، وقد مات حين هرب موسى من مصر واستقر في مِدْين.

وبعد موت (رمسيس الثاني) خلفه على عرش مصر ابنه (منفتاح) وهو المسمى فرعون الخروج، وهو الذي أمر الله موسى أن يبلّغه رسالة ربه بأن يؤمن به ويكف عن طغيانه وادعائه الألوهية، فكفر بما جاء به موسى، وعذب من آمن من بني إسرائيل، فأمر الله موسى أن يخرج بني إسرائيل من مصر، فلحق بهم فرعون هذا فأغرقه الله وجنده وطرح ماء البحر جثته على البر، فعثر عليه ممن بقوا بعده بعاصمة مُلكه ودفنوه في وادي الملوك والذي جاء في حقه كما ذكره القرآن: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ وكلمة آية معناها عبرة ويمكن أن تفسّر بمعنى معجزة في اصطلاح القرآن.

وفي العصر الحديث تم اكتشاف جثث بعض الفراعنة المحنّطة ومن ضمنها جثة

فرعون الخروج المسمى (منفتاح)، وقد ظهر من آثار قبر منفتاح أنه لم يكن مهيأً كما يجب لدفن ملك مثله لأن موته لم يكن منتظَراً فلم يهيّـأ له قبر خاص.

يقول البروفسور بوكاي: «لقد اكتشف عالم الآثار «لوريت» جثة منفتاح المحنط ابن رمسيس الثاني سنة ١٨٩٨ الذي يتضافر كل شيء على إقناع الفكر بأنه فرعون الخروج، وقد عثر على جثته في طيبا في وادي الملوك وقد نقل من هناك إلى القاهرة - وحلّ عالم الآثار «إليوت سميث» عصابته في الثامن من تموز سنة ١٩٠٧. ومن تاريخ ١٩١٢ أصبحت المومياء معروضة على الزائرين في متحف القاهرة مكشوفاً منها الرأس والعنق، وبقية البدن مغطاة بإحكام بقطعة قماش»[١].

ومن هنا نقف بإجلال أمام حقيقتين لا مجال للشك فيهما تشهدان بأن القرآن وحي من عند الله وأنّ محمداً رسول الله حـقّـا.

أولاً: من أين عرف محمد وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب أن فرعون الغريق لم يبتلعه البحر، وإنما نجى الله جثته وألقى ببدنه على الشاطىء؟

ثانياً: ومن أين عرف محمد أن قوم منفتاح أخذوا بدنه ووضعوه في مقبرة وادي الملوك ليأتي بعد ثلاثة آلاف سنة من موته وبعد ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن من يكشف عن تلك الجثة المحنطة وهي جثة منفتاح لتوضع أمام الزوار في متحف القاهرة.

هذه الحقيقة القرآنية عن نجاة جثة فرعون (منفتاح) من أن تأكلها الأسماك ليراها من بعده من يراها للعبرة والعظة هي معجزة قرآنية تضاف إلى كثير من معجزاته الأخرى.

ومما يؤكد ذلك أن هذه الحادثة عن بقاء بدن فرعون سليماً لم يأت ذكرها في التوراة ولم يذكرها الإنجيل أصلاً ولم تكن معلومة لدى المؤرخين قديماً حتى يقال إن محمداً نقلها عن غيره.

---

(١) عن كتاب: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم تأليف موريس بوكاي. ترجمة الشيخ حسن خالد.

ثم يختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ نعم إن أكثر الناس غافلون عن الآيات الكونية وعن المعجزات التي أوردها الله في القرآن، ولا يعلم ذلك إلاّ من بحث عن الحقيقة بتجرد وكان على علم واسع وثقافة شاملة يميز بهما الصواب من الخطأ والحق من الباطل.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

شرح المفردات

بوّأنا بني إسرائيل مبوأ صدق: أي أنزلناهم مكاناً صالحاً آمناً أسكنّـاهم فيه.

الممترين: الشاكّين.

فلولا: لولا كلمة تفيد الحث على الفعل بمعنى هلاّ.

كشفنا عنهم: رفعنا عنهم.

عذاب الخزي: عذاب الذل والهوان.

ومتّعناهم إلى حين: أي أطال الله حياتهم في عافية وخير إلى انقضاء آجالهم.

اختلاف بني إسرائيل

وبعد أن ذكر القرآن النعمة العظمى التي أنعمها على بني إسرائيل حيث أنجاهم من طغيان فرعون وجّه اللوم لهم على اختلافهم حول دينهم:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾[1] أي ولقد أنزل الله بني إسرائيل وأسكنهم مكاناً محموداً، ومنزلاً صالحاً مُرضياً وهو ما فتح عليهم من بلاد فلسطين وما فيها من خصب وثراء ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ورزقهم الله ما لذّ من المآكل والمشارب وطيب العيش ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي فما اختلفوا في أمر دينهم إلاّ من بعد ما قرأوا التوراة وعرفوا أحكامها فاختلفوا في فهمها وانقسموا فرقاً في تأويلها. وقيل: المراد بمن اختلفوا اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ فبعضهم صدّق برسالته الإلهية وبعضهم كذّب بها، وقد كان اليهود قبل بعثة محمد نبيّاً عالمين بقرب مجيء نبيّ تنطبق صفاته على محمد ﷺ لما قرأوا من بشارات في كتبهم للنبي الموعود ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إن ربك يا محمد يقضي بين الذين اختلفوا في دينهم يوم القيامة، وبين المختلفين في شأن نبوتك يا محمد بما يستحقون، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ الخطاب هنا للنبي ﷺ والمراد به غيره من أهل الشك الذين يرتابون في صحة ما جاء به القرآن من قصص الأنبياء وغيرها، لأن النبيّ يستحيل عليه الشك فيما أُنزل عليه من الوحي. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق. وعن ابن عباس أنه قال: ما شك النبي طرفة عين ولا سأل أحداً منهم. بناء على ذلك فإن المعنى: وإن كنت أيها المكلف أو أيها السامع في ريب مما أنزل الله من الوحي الذي يروي قصص الأنبياء

(١) وإنما وصف المبوّأ بكونه صدقاً من باب المدح لأن من عادة العرب أنها إذا مدحت شيئاً أضافته إلى الصدق.

﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ فاسأل علماء أهل الكتاب الذين أسلموا كعبد الله بن سلام، وتميم الداري وغيرهما عن صدق ما أخبر به القرآن من سيرة الأنبياء مع أقوامهم، فإنهم سيخبرونك بأن القرآن كتاب الله حقّاً ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ لقد جاءك أيها المكلف الحق من ربك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ فلا تكونن من أصحاب الشكوك والأوهام، بل كن من ذوي الإيمان الثابت.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ولا تكن أيها المكلف من الذين كذبوا بآيات القرآن فتكون في عداد الخاسرين الذين خسروا نعمة الإيمان بالإسلام وما فيه من سعادة للأنفس، وخسروا الآخرة وما فيها من نعيم دائم. وهذه الآية فيها ما يؤكد بأن الخطاب موجه إلى من يرتابون في صحة ما جاء به رسول الله من الوحي من عند ربه، لأن من المستحيل أن يكون رسول الله ﷺ من المكذبين بآيات الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن الذين ثبتت ووجبت عليهم كلمة ربك، أي حكمه وقضاؤه بأنهم لا يؤمنون، بل يموتون على الكفر ويخلدون في النار بسبب إصرارهم على تكذيب رسوله محمد ﷺ تكبراً وعناداً ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ ولو جاءهم كل بيان وكل حجة وكل معجزة لأن طبيعتهم غير قابلة لحقائق الإيمان ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي يؤمنون حين لا ينفع نفساً إيمانها وذلك عند معاينة العذاب ونزوله فيهم لمجازاتهم على كفرهم، وليس بعد نزول العذاب فيهم من عفو عنهم.

نجاة قوم يونس بسبب إيمانهم

وبعد أن ذكر القرآن أن الإيمان لا ينفع من الكفار عند معاينة العذاب بيّن بعد ذلك أن من الكفار من كشف عنهم العذاب عندما رأوا أماراته، قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ أي فهلاّ كان أهل كل قرية

أرسل الله إليهم رسولاً فبادروا إلى الإيمان قبل أن يحيط العذاب بهم فيقبله الله منهم وينجيهم من الهلاك، لكن لم يبادروا بالإيمان قبله فهلكوا ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لكن قوم يونس لما آمنوا عندما رأوا أمارات العذاب[1] وتابوا إلى الله، ولم يؤخروا إيمانهم وتوبتهم كما أخرها فرعون، أزال الله عنهم عذاب الذل والهوان في الدنيا بعدما أظلّهم وكاد ينزل بهم ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أي وأخّر الله في آجالهم ولم يعاجلهم بالعقوبة بل تركهم في الدنيا يستمتعون بها إلى الوقت الذي كتبه لانتهاء أعمارهم.

روي أن يونس عليه السلام أُرسله الله إلى أهل نينوى من أرض الموصل في العراق وكانوا أهل كفر وشرك بالله فدعاهم إلى عبادة الله وحده فكذبوه فأوحى الله إليه أن أنذرهم أن العذاب سيحلّ بهم بعد ثلاث ليالٍ فأخبرهم بذلك، فلمّا قرب موعد الإنذار غامت السماء غيماً أسود هائلاً ذا دخان شديد فهبط حتي غشي مدينتهم فاستولى عليهم الخوف والفزع فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه فلبسوا المسوح[2] وخرجوا إلى العراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب، فحنّ بعضها إلى بعض، فحنّت الأولاد إلى الأمهات، والأمهات إلى الأولاد، وعلت الأصوات والضجيج وأخلصوا النية، وأعلنوا إيمانهم، وتضرعوا إلى الله فاستجاب دعاءهم فرحمهم، وكشف عنهم العذاب بعدما أظلهم.

---

(١) قال الزجّاج: إنهم لم يقع بهم العذاب وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا العذاب لما نفعهم الإيمان.

(٢) المسوح: جمع مِسح وهو الكساء من الشعر.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾

شرح المفردات

الرجس: العذاب الذي يقع بسبب ما يُستقبَح.

تُغني: تنفع.

النُّذُر: جمع نذير وهو الإنذار بمعنى الإعلام بالشيء المخوف.

ينتظرون: يترقبون ويتوقعون.

خلوا من قبلهم: مضوا قبلهم.

لا إكراه في الدين

كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان قومه ولكن الكثير منهم في بدء دعوته أعرضوا عنه وكذّبوه وهذا ما سبب له الألم والحزن فجاءت الآيات التالية مواسية له، مبينة أن قضية الإيمان والهداية هي بيد الله سبحانه:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ أي ولو شاء ربك يا محمد لخلق هذا الجنس البشري على طبيعة واحدة وتفكير واحد فجعله لا يعرف إلاّ

طريقاً واحداً هو طريق الإيمان كالملائكة مثلاً، ولكنه لم يشأ ذلك لأن حكمته اقتضت أن يكون الجنس البشري مختاراً، ولديه استعداد للميل نحو الإيمان أو الكفر، ومنحه القدرة على اختيار طريق الحق أو الضلال. فالناس فريقان: فريق شاء الله أن يؤمنوا وهم الذين اختاروا الهدى ورجعوا إلى الله، وفريق شاء الله أن يكفروا لسوء طويتهم وفعلهم واختيارهم طريق الضلال، وفي هذا جاء في القرآن: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي أفأنت مطلوب منك يا محمد أن تكره الناس وتجبرهم على دين الله حتى يصيروا مؤمنين به؟ كلا ليس ذلك مطلوباً منك ولا داخلاً تحت قدرتك وإنما عليك إبلاغهم شرع الله.

هذه أول آية نزلت في حرية المعتقد، وأن الإيمان لا يكون بالإكراه وإنما بالإقناع. وقد جاء في القرآن في هذا المعنى أيضاً: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وجاء في القرآن أيضاً: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

فالإكراه يفرض التسليم بقضية دون الرضا بها، فهل يقبل الإسلام من إنسان أن يوافق دون اقتناع على ما جاء به رسول الله من عند ربه؟ لا ليس ذلك من صلب مبادئه، لأن الدّين الذي لا يقوم على الاقتناع به لا يكون له أثر على صاحبه ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وما كان لنفس ولا من شأنها مما أعطاه الله لها من العقل أن تصدق بوجود الله ووحدانيته وبرسوله محمد ﷺ وبالدّين الذي جاء به إلاّ بإرادته ومشيئته وتوفيقه، فلا تجهدن نفسك يا محمد في هداية الكافر بل عرِّفْهُ بما أنزله الله عليك من الهدى ثم دعه فإن هدايته بيد خالقه ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ أي ويجعل الله سخطه وعذابه على الذين لا يستعملون عقولهم في التفكّر في حجج الله ومواعظه الدالة على توحيده ونبوة رسوله محمد ﷺ.

ثم يرشد الله الناس إلى المنهج الفكري للإيمان بوحدانية الله وهو التأمل في الكون وما يحتويه من مصنوعات تدلّ على الصانع ووحدته وكمال قدرته وحكمته، يقول تعالى: ﴿قُلِ انْظُروا مَاذَا فِي السَّمٰوات والأَرْضِ﴾ المراد بالنظر هنا التفكر: أي قل يا محمد للكفار: تفكَّروا بما تحتويه السماء من نجوم وكواكب، وتفكَّروا في الأرض التي تعيشون عليها وما تشتمل عليه من جبال وسهول وأنهار وبحار وكائنات حية، وصنوف النبات وأنواع المعادن، كل هذا يشهد بوجود الله ووحدانيته وحكمته. هذا المنهج الذي دعا إليه القرآن للوصول إلى الإيمان بالخالق لم تعرفه الديانات السابقة، فبعضها يقول آمِن ثم فكِّر وبعضها يقوم إيمانها على العجائب والمعجزات التي صدرت من الأنبياء ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ الآيات: المراد بها هنا الدلائل والبراهين الكونية، والنُّذُر: جمعٌ نذير، والمراد بالنُّذُر: الأنبياء الذين أنذروا أقوامهم وخوّفوهم من عاقبة الكفر، والمعنى: وما تنفع الآيات الكونية وتحذير الرسل بأمثال هؤلاء الممعنين في الضلال، المصرين على الكفر، المعاندين للحق؟

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِين خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِم﴾ أي فهل يترقب ويتوقع هؤلاء الكفار المعاصرون لرسول الله محمد ﷺ إلا مثل أيام الله التي انتقم فيها من الأمم الماضية قبلهم كأيام الله مع عاد وثمود ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إنّي مَعَكُم مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أي قل يا محمد للكفار من قومك: فانتظروا العذاب الذي نزل بالأمم قبلكم بسبب كفرهم، إني معكم من المنتظرين لوعد ربي، وهذا تهديد ووعيد لهم من الله. ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا والَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ثم ينجّي الله رسُله والذين آمنوا معهم من ذلك العذاب ﴿كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ المؤْمِنِينَ﴾ أي كما أنجى الله سابقاً رسُله ومن آمن معهم من العذاب كذلك اقتضت عدالة الله ورحمته أن ينجّي حقًّا المؤمنين برسالة محمد ﷺ من العذاب الذي سينزل بالكفار.

﴿قُل يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنْ كُنْتُم في شَكٍّ مِنْ ديني﴾ أي قل يا محمد للمشركين

عبَدة الأصنام الشاكّين في نبوّتك: إن كنتم في ريب وشكّ من ديني فاعلموا أنني مؤمن إيماناً راسخاً بما أنزله الله عليّ من الوحي ﴿فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فإني لا أعبد الآلهة والأصنام التي تعبدونها من غير الله ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ولكنني أعبد الله الذي يقبض أرواحكم فيميتكم عند انتهاء آجالكم فهو الجدير بالعبادة والتقديس وتخصيص التوفي بالذكر للتهديد والترهيب، حيث يتوفاكم الله فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد يوم القيامة ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأمرني ربي أن أكون من المتمسكين بالإيمان به وبما أنزله الله عليّ من الوحي الذي هو هدى للناس.

وفي الآية لفتة كريمة وتعريض بالمشركين فكأنه يقول لهم: إن كنتم في شك من ديني فلا ينبغي أن تشكّوا فيه وإنما ينبغي أن تشكّوا فيما أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تضرّ، فأما ديني فلا مجال للشك فيه لأني أعبد الخالق الرازق الذي يحيي ويميت.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ (١٠٩)﴾

شرح المفردات

أقم وجهك للدين: أي أظهر دين الله واعمل بتعاليمه وأخلِص له.

حنيفاً: الحنيف هو المخلص الذي أسلم لأمر الله.

يمسسك: يُصِبْك.

فلا كاشف له: فلا مُزيل له.

وما أنا عليكم بوكيل: ولست بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم.

كشف الضر بيد الله وحده

ثم تختتم هذه السورة بتوجيهات كريمة من الله لرسوله محمد ﷺ وللمؤمنين:

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ يقول الفخر الرازي في تفسيره: «إقامة الوجه كناية عن توجيه العقل بالكلية إلى طلب الدين، لأنّ من يريد أن ينظر إلى شيء نظراً بالاستقصاء، فإنه يقيم وجهه في مقابلته بحيث لا يصرفه عنه لا بالقليل ولا بالكثير» والحنيف: هو المسلم المخلص لله الذي أسلم أمره لله، وكل من أسلم أمره لله فهو حنيف. وقيل: الحنيف هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم وهي توحيد الله، ومن كان على دين إبراهيم فهو حنيف لعدوله عن الشرك بالله وميله عن الضلال

﴿ولا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه أحداً من خلقه كأتباع بعض الديانات الذين يجعلون بينهم وبين الله حجاباً من الوسطاء والأولياء والقديسين والشفعاء يوجهون قلوبهم إليهم عند الشدة بالدعاء ليقضوا لهم حاجتهم[1] بدل أن يوجهوا قلوبهم إلى الله مباشرة بالدعاء الذي بيده كل شيء ولا يملك غيره إجابة الدعاء.

﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُكَ ولا يَضُرُّكَ﴾ هنا نهي عن الاتجاه في الدعاء والعبادة إلى غير الله لأنهم لا يملكون استجابة الدعاء وجلب النفع ودفع الضر، فكل من يتوجه بالدعاء والعبادة إلى غير الله لكشف الضر فقد أشرك بالله وضل سواء السبيل ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي إن توجهت إلى غير الله بالدعاء كائناً من كان فإنك تكون في عداد الظالمين. والظالمون يمكن أن يراد بهم الكافرون كما جاء في القرآن: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ﴾ أي وإن يصبك الله بما تراه يضرك من فقر أو مرض أو مصيبة فإن أحداً لن يستطيع أن يزيل عنك ما أصابك إلا الله وحده، والناس يتعرضون للضر امتحاناً من الله لهم أو تكفيراً لذنوبهم أو رفعة لمنزلتهم عنده سبحانه. وقد يكون الضر بسبب ما جنت يد الإنسان كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ أي وإن يرد ربك بك الخير: من رخاء ونعمة وعافية فلا يقدر أحد أن يحول بينك وبين ما أراده الله بك ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي يصيب ربك بالرخاء والسرّاء أو البلاء والضرّاء من يشاء ويريد من عباده، وعبّر الله سبحانه بلفظة (الفضل) بدل لفظة الخير للإشارة إلى تفضّله على

(١) وكما يفعل بعض المسلمين الجهَلة الذين يقصدون قبور الأولياء والصالحين ويطلبون منهم قضاء حاجاتهم وهذا حرام لا يجوز شرعاً.

عباده بأكثر مما يستحقون ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وهو كثير المغفرة لذنوب من تاب من عباده وهو الرحيم بمن آمن وأطاعه.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ والحق إما أن يكون المقصود به الإسلام أو القرآن أو كليهما. وكلمة (من ربكم) للتنويه بأنه حق واضح لا يخالطه باطل ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فمن يستقم على الهدى ويتبع ما جاء به القرآن من الوصايا فإنه يجلب الخير والثواب لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن ضل عن كتاب الله وأعرض عن هديه فإن ضلاله يعود عليه بما يفوته من فوائد العمل به ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ وقل يا محمد لقومك: وما أنا بحفيظ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها ولا أنا مسيطر عليكم فأكرهكم على الإيمان.

﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحَى إِلَيْكَ﴾ واتبع يا محمد بالعمل بما يوحي إليك ربك من القرآن الكريم ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾ واصبر على طاعة الله وما يؤذيك قومك حتى يحكم الله بنصرك على أعدائك وهو أعدل الحاكمين. وقد صدق الله وعده ونصر رسوله محمداً على أعدائه، وانتشر دين الله وجعل المؤمنين خلفاء في الأرض ما داموا سائرين على منهج الله، جعلنا الله من المتمسكين بكتابه سائرين على هديه.

تعريف بسورة هود

هذه السورة مكية أي أنها نزلت بمكة، وسميت بسورة هود لاشتمالها على قصة هود وتخليداً لذكرى كفاحه المرير مع قومه الطغاة حيث دعاهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان والرجوع عن طغيانهم، فرفضوا دعوته فأهلكهم الله بريح شديدة عاتية.

وقد روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: «ما شيّبك؟ قال: شيبتني هود وأخواتها» وفي رواية أخرى: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون» والمراد ما فيها من ذكرٍ لما أصاب الطغاة ومكذّبي رسل الله من هلاك في الدنيا، وما ينتظرهم من عذاب شديد في الآخرة.

وسورة هود تشتمل على كثير من الموضوعات نشير إلى بعضها فيما يلي:

- الحديث عن القرآن الكريم وما خصه الله من مزايا، ودعوة الناس للعمل به، ودعوة الناس للاستغفار والتوبة ليمتعهم الله في الدنيا متاعاً حسناً.
- الدعوة إلى إقامة الصلوات المفروضة، وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات.
- بيان إحاطة علم الله بكل الكائنات، وتكفّله برزق كل دابة في الأرض وعلمه بأحوالها.
- بيان إعجاز القرآن وعجز البشر عن الإتيان بعشر سور مثله، مما يثبت أنه وحي من عند الله.
- كما ذكرت هذه السورة طائفة من قصص بعض الأنبياء فبالإضافة إلى قصة هود التي سميت هذه السورة باسمه:

- ذكر قصة النبي نوح عليه السلام مع قومه الذين تمادوا بالكفر والضلال فأغرقهم الله بالطوفان ونجى نوحاً ومن آمن معه بالسفينة.
- قصة النبي صالح عليه السلام مع قومه قبيلة ثمود الذين أهلكهم الله بالصيحة بسبب كفرهم ونجاة صالح ومن معه من المؤمنين.
- قصة النبي إبراهيم عليه السلام مع الملائكة حيث بشّرته بولد له اسمه اسحق وحفيد له اسمه يعقوب.
- قصة النبي لوط عليه السلام وما جرى له مع الملائكة، وإهلاك الله لقوم لوط حيث جعل قراهم عاليها سافلها بسبب شذوذهم الجنسي وعصيانهم لله، ونجاة لوط ومن آمن معه.
- قصة النبي شعيب عليه السلام وهلاك قومه جزاء تطفيفهم الكيل والميزان وفسادهم ونجاة شعيب ومن آمن معه.
- مصير فرعون وقومه الطغاة في الآخرة.
- بيان أن الظلم من أسباب هلاك الأمم وتدميرها.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾

شرح المفردات

أحكمت آياته: أُتقنت آياته ونُظِّمت تنظيماً محكماً لا خلل فيها ولا اضطراب.

فُصّلت: ذُكرت فيها الأمور التي يحتاج إليها الناس في عقائدهم وسلوكهم مفصلة.

من لـدن حكيم: من عند الله مبدع الكون على خير وجه.

نذير: محذّر الناس ومخوفهم من عاقبة الكفر والضلال.

بشير: مخبر الصالحين من الناس بما ينتظرهم من ثواب الله.

إلى أجل مسمى: إلى الموعد المحدد لانتهاء أعمارهم.

تولّـوا: تعرضوا أصلها (تتولوا) حذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

إلى الله مرجعكم: أي إلى الله رجوعكم ومصيركم بعد الموت.

يثنون صدورهم: يخفون ما في صدورهم من العداوة والبغضاء.

ليستخفوا منه: الاستخفاء الخفاء، والسين والتاء للتأكيد.

يستغشون ثيابهم: يتغطون بثيابهم مبالغة في الاستخفاء.

ما يسرون وما يعلنون: ما يخفون في قلوبهم وما يضمرون وما يظهرون.

الدعوة إلى عبادة الله وحده والتوبة من المعاصي

يستهل الله تعالى هذه السورة ببيان ما يتحلى به القرآن من مزايا:

﴿الر[1] كِتابٌ أُحكِمَت آياتُه﴾ المراد بالكتاب هنا القرآن الكريم، ومعنى أُحكمت آياته: أي أُتقنت وأُجيدت، فهي متناسقة موضوعاتها ليس فيها نقص ولا خلل ولا تناقض فهي كالبناء المحكم ﴿ثُمَّ فُصِّلَت مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ﴾ وهذه الآيات بيّنت أحكام الحلال والحرام والمواعظ والعبادات والعقائد والثواب والعقاب، كما أن هذه الآيات هي مُنزلة من عند الله الحكيم في أقواله وأفعاله، الخبير بأحوال الناس وما يصلحهم.

والغاية الأساسية من إنزال القرآن: ﴿ألاّ تَعبُدوا إلاّ اللّهَ﴾ أي لا تعبدوا إلا الله وحده واتركوا عبادة سواه، وعبادة الله هي طاعته والخضوع له مع غاية التذلل له.

فعبادة الله وحده تحرّر الإنسان من الأوهام والخرافات والعبودية للآلهة الزائفة التي اخترعتها أوهام البشر، وتخلّصه من الوسطاء من رجال الدين الذين يدّعون بأن لهم سلطة من الله وقُربة منه، كما أن عبادة الله تُضفي على القلب السكينة والاطمئنان إلى الغد، وتنزع منه الخوف مما يخبئه له القدر من مصائب لأن المؤمن يعتمد على ركن قوي وهو الله القادر على كل شيء.

ثم أمر الله رسوله محمداً أن يبين لقومه مهمته: ﴿إنّني لَكُم مِنْهُ نَذيرٌ وبشيرٌ﴾ أي إني نذير لكم من الله ومخوفكم من عقابه إذا أصررتم على كفركم كما أني مبشّر المؤمنين بما يسرهم من الثواب الجزيل في الآخرة، والحياة الطيبة في الدنيا.

---

(١) الر: هذه الأحرف التي وردت في مطلع هذه السورة هي من باب التحدي لكفار العرب، فكأن القرآن يخاطب هؤلاء الذين يزعمون أن القرآن من تأليف محمد: ها هي بعض هذه الأحرف التي تتألف منها كلمات القرآن، وهي نفس الأحرف التي تصوغون منها كلامكم ومع ذلك عجزتم عن أن تأتوا بمثل هذا القرآن عندما تحداكم بذلك، فعجزكم دليل على أن القرآن وحي من عند الله. وهنالك أقوال أخرى ذكرناها في مطلع سورة يونس.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي أسألوا الله أن لا يؤاخذكم على ذنبٍ مضى ثم توبوا إليه، والتوبة هي أن يكفّ الإنسان عن عمل السيئات مع الندم على ما صدر منه من ذنوب، والعزم على عدم العودة إلى معصية الله، وذكر التوبة عقب الاستغفار يدل على أنه لا سبيل إلى طلب المغفرة من الله إلاّ مقرونة بالتوبة، لأن المذنب ما لم يرجع عن ذنوبه ويندم على ما فعل لا يمكن أن يطلب الغفران من الله، فالتوبة مطلوبة لأنها من متممات الاستغفار.

ثم بين القرآن ما ينجم عن الاستغفار والتوبة من خيرات: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً﴾ والمتاع: ما يقتنيه الإنسان وينتفع به، ووُصف المتاع بالحسن: أي متاع خالص من المكدرات، أي يهيىء الله لكم ما تحبون وما تنتفعون به في الحياة الدنيا من سعة في الرزق، ورغد في العيش ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى الوقت الذي قضى فيه عليكم بالموت، فلا يستأصلكم بالعذاب والهلاك كما استأصل الأمم الكافرة قبل الوقت الذي قدّره الله لانتهاء أعماركم ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ المراد بالفضل الأول ما يصدر من الإنسان من عمل صالح، والمراد بالفضل الثاني: الثواب الجزيل من الله، والمعنى: ويعطي الله في الآخرة كل صاحب عمل صالح ثواب عمله وفضله ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أي وإن تُعرضوا عمّا دعوتكم إليه من عبادة الله وحده والتوبة من المعاصي، فإني أخاف عليكم عذاب يوم القيامة، ووصف هذا اليوم بالكبير لزيادة تهويله ولشدة ما يقع فيه من العذاب.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إلى الله وحده رجوعكم ومصيركم بعد الموت حيث يبعثكم من قبوركم ليجازيكم على أعمالكم، وهو سبحانه بالغ القدرة على كل شيء لا يعجز عن فِعْلِ أي أمر.

ثم يتحدث القرآن عن الكفار والمنافقين وما يضمرون من العداء لرسول الله ﷺ:

﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ ثني الصدر إذا مال وانحرف عن الشيء وهنا كناية عن إعراضهم عما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ من الهدى، كما يأتي الثني

بمعنى الطي، يقال ثنيت الشيء إذا طويته وجعلته جزأين متصلين أحدهما فوق الآخر، والمراد أنهم يطوون صدورهم على الكفر وعلى العداوة والبغضاء لرسول الله ﷺ بحيث يكون ذلك مخفيًّا مستوراً. يُروى أن هذه الآية نزلت في أحد المنافقين وهو الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو المنطق يظهر لرسول الله الألفة والمحبة، ويضمر له في قلبه البغض والكراهية ﴿أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ ألا إنهم في الوقت الذي يغطون وجوههم بثيابهم حتى لا يراهم النبي ﷺ إذا مروا به ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم الله ما يضمرونه في قلوبهم وما يعلنونه بأفواههم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إنه سبحانه عليم بما تضمره نفوسهم وما تعلنه ألسنتهم. وقد رُوي أن بعض المنافقين كان إذا مر برسول الله ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه لئلا يراه النبي ﷺ.

وتأمل كيف بدأ الله الآية بحرف التنبيه (ألا) وكرره للاهتمام بمضمون الكلام، وبيان ما بلغه المنافقون والكفار من جهل وحماقة وكُره للنبي ﷺ.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾

شرح المفردات

دابة: اسم لكل حيوان يدبّ على الأرض ذكراً كان أو أنثى، عاقلاً أو غير عاقل، وغلب اسم الدابة على غير العاقل.

رزقها: طعامها.

مستقرها: موضع استقرارها وإقامتها.

مستودعها: موضع استيداعها بعد الموت.

ليبلوكم: ليختبركم ويمتحنكم.

أمّة معدودة: فترة قليلة من الزمان.

ما يحبسه: أيّ شيء يمنع هذا العذاب من الوقوع.

ليس مصروفاً عنهم: ليس مدفوعاً عنهم.

وحاق: نزل بهم وأحاط.

من مظاهر القدرة الإلهية

ثم يبين القرآن عظمة القدرة الإلهية المتمثلة بإيصال الرزق إلى كل دواب الأرض: ﴿وَمَا مِنْ دابَّةٍ في الأرض إلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي ما من حيوان على وجه الأرض يمشي على رجلين أو يمشي على أربع أو يمشي على غير هذه الصور، إلاّ تكفّل الله برزقه اللائق به. وكلمة ﴿إلاّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ تفيد أن الرزق عطاء من الله للدابة لكنها لم تفرضه هي على الله سبحانه، لأنه عطاء منه تفضلاً وإحساناً. وتقديم (على الله) قبل (رزقها) لإفادة القصر، أي على الله وحده الرزق لا على غيره ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ ويعلم الله المكان الذي تأوي إليه وتستقر فيه ليلاً أو نهار ﴿وَمُسْتَودَعَهَا﴾ ويعلم الله سبحانه المكان الذي تُودَع فيه بعد مماتها ﴿كُلٌّ في كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي كل شيء من ذلك مسجّل عنده سبحانه في كتاب واضح جليّ ثابت في علم الله وهو اللوح المحفوظ.

هذه الآية تدخل الطمأنينة إلى قلوب الناس، فإذا كان الله قد تكفّل بالرزق لكل دواب الأرض فبالأحرى أن يكون رزق الإنسان مقدماً على جميع دواب الأرض، لأن الله قد كرّم بني آدم وفضّلهم على جميع مخلوقاته، حيث قال سبحانه:

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

والله إذ تكفل بأرزاق الناس إلاّ أنه أمرهم بالأخذ بالأسباب والسعي في الحصول على وسائل العيش كما قال سبحانه:

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

كما ألهم الله كل دابة في الأرض إلى الوسيلة التي تحصل بها على طعامها، فما أُعدّ لدواب الأرض من رزق فمن الله، وربما أمسك عنها الرزق فتموت جوعاً.

ثم تتحدث الآيات عن عظمة الإبداع الإلهي في خلق هذا الكون:

﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمٰوات وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ فالله سبحانه خلق الكون في ستة أيام، والمراد بالأيام: أيام الله لا أيامنا نحن وهي التي تفسر بستة أطوار من الزمن. فاليوم بالنسبة إلى البشر يعرف بشروق الشمس وغروبها بسبب دوران الأرض حول نفسها، وقبل أن يخلق الله الشمس لم يكن هناك ليل ولا نهار، فالأيام الستة التي خلق الله فيها الكون تُفسر على أنها مدة من الزمن هي في علم الله وحده. والله قادر على خلق الكون بفترة زمنية كلمح البصر لما جاء في القرآن عن وصف قدرة الله ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. أما خلق الكون في ستة أيام فهو لحكمة اختص بها سبحانه بما أودع في الكون من أسرار بحسب علمه.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ﴾ أي وكان عرش الله على الماء ولم يكن بينهما حائل قبل أن يخلق الله السموات والأرض. واختلف في المراد من عرش الله الذي كان على الماء، فمن العلماء من يفهمه على أنه جسم كوني عظيم خلقه الله أول ما خلق، وجعله مصدر أوامره في الكون، وعرش الله ما لا يعلمه البشر إلا بالاسم فهو من عالم الغيب لا ندركه بحواسنا ولا نستطيع تصوره بأفكارنا. ومن العلماء من ذهب إلى أن العرش كناية عن الملك والسلطان ورمز له، أي أنه مركز نظام الملك ومصدر التدبير له، وعلى هذا الرأي يكون المعنى: وكان ملك الله قبل خلق السماوات والأرض ملكاً

على الماء ليخلق منه ما يريد خلقه من المخلوقات الحية وهي التي أشار إليها القرآن بقوله سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقد خلق الله السموات والأرض ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي ليختبركم ويمتحنكم أيكم أتقى لله، وأكثر شكراً له، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعته. من هذه الآية نفهم مكانة الإنسان التي خصه الله بها من سائر المخلوقات حيث خلق السماوات والأرض ليبتليه ويختبره، كما نفهم منها أيضاً بأن الله أراد من الإنسان أن تكون لَدَيْه نزعة التنافس مع غيره في الأعمال الحسنة وهذا ما يفهم من قوله سبحانه: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وأعمال الإنسان هي سبب سعادته أو شقائه في الأرض كما أنها تكون سبب عذابه في الآخرة أو النعيم فيها.

ويتابع الله قوله: ﴿وَلَئِن[1] قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكافرين مؤكداً لهم: إنكم ستبعثون من قبوركم أحياء يوم القيامة لتجازوا على أعمالكم ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِين كفروا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي يقول الذين كفروا على سبيل الإنكار: إن هذا الذي تقوله يا محمد ما هو إلاّ سحر واضح.

ثم يحكي لنا القرآن ما قاله الكفار إنكاراً للعذاب الذي أنذرهم به رسول الله ﷺ: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾[2] فالأمة هنا بمعنى: الحين والزمان، أي ولئن أخّر الله عنهم العذاب إلى مدة من الزمان قليلة ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ أي ليقول الكفار على سبيل التهكم: ما الذي حبس هذا العذاب عنّا وجعله غير نازل بنا ﴿أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ﴾ ألا إن ذلك العذاب الذي

(١) ولئن: اللام الداخلة على إن هي اللام الموطئة للقسم وجواب القسم ليقولن.

(٢) كلمة معدودة تفيد القلة لأن ما يحصره العد فهو قليل.

استعجل الكفار وقوعه سيأتيهم، ويوم ينزل بهم العذاب لن يدفعه عنهم دافع، وافتتح الكلام بحرف التنبيه (ألا) للاهتمام بالخبر ولإدخال الروع في قلوبهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يسخرون به ويستعجلون وقوعه، وعبّر القرآن بلفظ (حاق) بصيغة الفعل الماضي مع أنه لم ينزل بهم للإشارة إلى تحقق وقوعه.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾

شرح المفردات

رحمة: كل نعمة من الله في الدنيا هي رحمة كالصحة والغنى والأمان.

نزعناها: سلبناها وحرمناه منها.

كفور: كثير الجحود لنعم الله.

نعماء: هي النعمة التي يظهر أثرها على صاحبها.

ضـرّاء: نائبة، مصيبة، نكبة.

مسّته: أصابته.

ذهب السيئات: ولّت المصائب عني من فقر ومرض وسواهما.

لفرح فخور: شديد الفرح والبطر بالنعمة متفاخر بما أُعطي منها.

لولا أُنزل عليه كنز: هلاّ أُنزل عليه مال كثير.

وكيل: رقيب، حفيظ للأمور.

طبيعة الإنسان عند البلاء وعند النعمة

ثم يصف القرآن حالة الإنسان عندما يبتليه ربه بالشدة:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي ولو أن الله أعطى الإنسان بعض النعم وأذاقه حلاوتها فصار في سعة من الرزق، ورخاء في العيش، وسلامة في الصحة ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ ثم سلبها الله منه بما يبتليه بالمرض، والمصائب، والعسر في العيش ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ هاتان الكلمتان من صيغ المبالغة في اللغة، أي صار شديد اليأس من رحمة الله عندما ينزع الله عنه هذه النعم، عظيم الكفران لما سلف مما أعطاه الله من النعم.

هذا حال الكافر، أما المؤمن فلا ييأس أبداً كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] لأن الذي ييأس هو الذي لا يركن إلى الله ولا يلجأ إليه عند الضر، أما المؤمن فصلته بالله تخفف عنه كل مصائب الحياة، وتُلقي في نفسه الأمل والرجاء في رحمة الله.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي وإذا أنعم الله على الإنسان بما تطيب به حياته، ويلذّ به عيشه، بعد ضر كان يقاسيه ويعانيه كفقر أو مرض ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي لقال عند ذلك ذهب الضيق والعسر عني، وزالت الشدائد والمكاره ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ إنّه فرح بهذه النعم، مسرور بها متفاخر[1] بها على عباد الله، وغاب عن ذهنه شكر الله عليها ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ إلاّ الذين صبروا على ما أصابهم إيماناً بالله واحتساباً للأجر عنده، كما صبروا على النعمة فلم تبطرهم ولم تخرجهم عن طاعة الله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي وعملوا الأعمال الصالحة تقرّباً إلى الله في حالتي النعمة والمحنة ﴿أُولَئِكَ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة لهم مغفرة من الله تعالى لذنوبهم، ولهم ثواب كبير في الآخرة على أعمالهم الحسنة وهو الجنة.

(١) الفخر هو تباهي المرء على غيره بما له من الأشياء المحبوبة للناس.

ثم يواسي الله رسوله محمداً ويخفف من أحزانه بسبب إعراض قومه عن دعوته بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ لعل: للترجّي والتوقع ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه فقد يمتنع لمانع، والمانع هو ما عصمه الله لرسوله محمد ﷺ من مخالفة أمره، والمعنى: فلعلّك يا محمد تارك تبليغ بعض ما يوحى إليك وهو ما يثير غضب المشركين من التنديد بآلهتهم، وضائق صدرك مخافة تكذيبهم واستهزائهم بقولهم: ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ أي يقولوا: هلاّ أُعطي محمد مالاً كثيراً يغتني به ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ وهلاّ جاء معه ملك من الملائكة يصدّقه ويشهد له بالنبوة، فثابر يا محمد على تبليغهم ما أمرك الله بتبليغه مما أوحاه الله إليك ولا يضق صدرك بما يطلبون منك من المعجزات. والآية هنا فيها تنديد بالمشركين وحث لرسول الله على عدم الانصياع لرغباتهم ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ إنما رسالتك يا محمد هي إنذار قومك وتخويفهم من عاقبة كفرهم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ والله سبحانه هو الموكل بأمور خلقه يحصي عليهم أعمالهم ويجازيهم بها أتم الجزاء.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

شرح المفردات

افتراه: اختلقه من عند نفسه.

يستجيبوا: الاستجابة هي الإجابة والتلبية.

القرآن معجزة محمد ﷺ

ثم ينتقل القرآن إلى الرد على الكفار الذين زعموا أن القرآن من تأليف محمد، وهذه شبهة يرددها الآن كثير من أتباع الديانات الأخرى.

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ(١) يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل أيقولون إن محمداً قد اختلق القرآن وألّفه من عند نفسه ونسبه إلى الله كذباً، والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ أي قل لهم يا محمد على سبيل التحدي: فأتوا بعشر سور مماثلة له في البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ وفخامة المعاني مختلقات من عند أنفسكم إن صح أني اختلقتها من عندي كما تزعمون، فإنكم أقدر على ذلك مني لأن منكم من زاول أساليب النثر والخطب والأشعار ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي واستعينوا على ذلك بمن تجدون عنده البلاغة والفصاحة في الكلام من غير الله إن كنتم صادقين أني قد اختلقت هذا القرآن وليعنكم هؤلاء للإتيان بعشر سور مثله مختلقات كما تزعمون ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فإن لم يستجيبوا لكم من دعوتموهم ليعينوكم في الإتيان بعشر سور مثل القرآن وعجزوا عن ذلك ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ فاعلموا أيها الناس أن هذا القرآن أُنزل بعِلْم الله وحده ولا يقدر على إنزاله بتلك الصورة وهذا الأسلوب أحد غير الله ﴿وَأَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ واعلموا أن الله هو المتفرد بالألوهية لا شريك له ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهل أنتم أيها المشركون وقد أدركتم إعجازه، وعدم القدرة على الإتيان بمثله، وأنه ليس من عمل البشر، هل بعد ذلك كله أنتم داخلون في الإسلام متبعون لأحكامه؟ والاستفهام هنا مقصود به الحض على الفعل وعدم تأخيره.

هذا التحدي ذكره القرآن في مواضع شتى وقد مضى عليه خمسة عشر قرناً حتى يومنا هذا ولم نسمع أو نقرأ أنه حصل خلال هذه القرون الماضية أن أديباً، أو شاعراً، أو مجموعة من الأدباء والشعراء والبلغاء من سائر الملل في الأرض قدّموا لنا نصّاً أدبياً يوازي روعة القرآن وبلاغته وفصاحته، بالإضافة إلى ما يحتويه القرآن من الحكم والآداب والشرائع وقصص الأنبياء المتضمنة الدروس والعبر، إن ذلك كله يقدم لنا البرهان القوي، والحجة القاطعة، على أن القرآن هو وحيٌ من عند الله، وأن محمداً رسول الله حقّاً.

(١) أم: بمعنى بل، وبل هي للإضراب وهو انتقال المتكلم من غرض إلى آخر.

هذا وإن حياة محمد قبل النبوة تشهد بصدق نبوته، فقد نشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يزاول الشعر والخطابة والنثر ولم يتتلمذ على أحد من رجال الدين، ولم يشارك قومه في لهوهم ومجونهم ومساوئهم، وقد بقي هذا شأنه حتى بلغ سن الأربعين من عمره، ثم أخبر قومه أن الوحي نزل عليه من السماء ثم أيد دعواه بأنه نبي بهذا القرآن الذي أوحاه الله إليه.

وليس ما تحدى به القرآن العرب وغيرهم من الأمم مقصوراً على الآية السابقة فلقد جاء التحدي أيضاً بأن يأتوا بمثل القرآن، قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤].

كما تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا(١) فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تماثله على كثرة البلغاء منهم أعلن عجزهم وأظهر إعجاز القرآن بهذه الآية ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

من مظاهر إعجاز القرآن

صورة نظمه العجيب وأسلوبه الفريد المخالف لأساليب العرب، وليس من شيء في أسلوب القرآن يدخله في ما يشبه من كلام الناس أو يردّه إلى طبع معروف من طباع البلغاء، وما من عالم أو بليغ إلا وهو يعرف ذلك ويعد خروج القرآن على أساليب الناس كافة دليلاً على إعجازه، وعلى أنه ليس من كلام البشر، فلو كان القرآن من تأليف محمد لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب البلغاء والشعراء في عصره.

ومن مظاهر إعجاز القرآن ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة

(١) عبدنا: هو رسول الله محمد ﷺ.

والأخبار عن المغيبات في المستقبل، فمن ذلك ما وعد الله به رسوله محمداً ﷺ من النصر على أعدائه وأن دينه سيظهر على كل الأديان، وقد تحقق ذلك بعد فترة وجيزة من هذا الوعد الإلهي.

ومنها: ما تضمّن القرآن من المعارف الدينية من توحيد الله وتنزيه لذاته عن مشابهة الخلق، والدعوة إلى عبادته وطاعته، وبيان الحلال من الحرام، ودعوته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاده إلى محاسن الأخلاق وزجره عن مساوئها.

ومنها: ما اشتمل عليه القرآن من علوم كونية لم تكن معروفة في زمن نزوله ثم ظهرت حقائقها في العصر الحاضر.

ومن مظاهر إعجاز القرآن وقعه الأخّاذ على السمع وتأثيره في النفس من اختيار ألفاظه العذبة وتآلف حروفها في النغم بحيث لو سقط حرف واحد منها أو أُبدل بغيره أو أُقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللاً بيّناً أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وانسجام النغم، هذا مع الابتعاد عن الغريب والوحشي من الكلام، واطراد الفاصلة[1] في آياته على نسق خاص يؤلف مجموعها كلاماً جميلاً عذباً يجذب السامع إلى ما فيه من روعة وبيان.

هنا أوجه كلامي إلى الذين يشكّون في وجود الله ووحدانيته وإلى الذين يعتقدون بأن القرآن من تأليف محمد ﷺ.

وإلى الذين ينشدون برهاناً جلياً على أن الإسلام دين من عند الله.

أدعو هؤلاء جميعاً أن يدرسوا القرآن بتجرد وعقل منفتح، ويقارنوا أسلوبه بجميع ما أنتجه بلغاء العرب وفصحاؤهم من إنتاج أدبي قديماً وحديثاً.

(١) الفاصلة: هي اصطلاح قرآني يطلق على الكلمة التي تختتم بها الآية القرآنية، وتنتهي هذه الكلمة بحرف خاص يتكرر في آيات السورة وفي الفاصلة مراعاة للمعنى وللنظم الفني للآية. وهذه الفاصلة هي من خصوصيات القرآن لا نجدها في كلام العرب، وهي تُظهر إعجاز القرآن وعظمة بلاغته وعدم القدرة على مجاراته. هذا وأكثر فواصل القرآن ينتهي بالنون أو الميم أو الألف لما لهذه الحروف من وقع خاص على الأذن.

كما أدعوهم ليقارنوا مبادىء الإسلام بكل مبادىء الأديان الحاضرة، فإن اعتقدوا بعد الدراسة والتمحيص بأن القرآن ليس من كلام البشر، فحريّ بهم أن يصلوا إلى النتيجة الحاسمة التي خَلُصَ إليها القرآن عندما تحدى العرب بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن وعجزوا عن ذلك وهي: أنه مُنزل من عند الله، وأن الله هو الذي لا إله غيره، فهل أنتم بعد هذه البراهين المقنعة داخلون في الإسلام؟ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

شرح المفردات

الحياة الدنيا وزينتها: هي المال والجاه والمنصب وغير ذلك من متع الحياة الدنيا.

نوفّ إليهم أعمالهم: نعطيهم جزاءها وافياً كاملاً في الدنيا.

لا يبخسون: البخس، النقصان. أي لا يُنقصون شيئاً من الجزاء على أعمالهم.

حبط: بطل في الآخرة وذهب نفعه.

وباطل ما كانوا يعملون: أي لا قيمة لعملهم حيث لم يعملوا لوجه الله.

بيّنة: حجة واضحة وبرهان ظاهر.

يتلوه: يتبعه، يقرأه.

إماماً ورحمة: أي كتاباً يؤتم به في الدين، ورحمة للقوم الذي ينزل عليهم.

الأحزاب: الأقوام والجماعات الذين تحزّبوا لمحاربة رسول الله ﷺ.

فالنار موعده: مصيره إلى جهنم يوم القيامة.

فلا تك في مرية منه: فلا تشكّ في أن هذا القرآن هو من عند الله.

مصير الذين لا يبتغون بأعمالهم وجه الله

ويتابع القرآن فيحذّر من ينساق إلى شهوات الدنيا ولا يلتفت إلى ثواب الآخرة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنيا وَزِينَتَها﴾ أي من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها من مال وجاه ومنصب وغير ذلك من المتع الدنيوية وملذاتها ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي يعطيهم الله ثمرة جهودهم ـ حسب مشيئته ـ دون أن يظلموا شيئاً من حقوقهم فيها ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ وهم في هذه الدنيا لا ينقصون شيئاً من نتائج أعمالهم وجهودهم فيها. فكل من أتى بعمل من الأعمال لطلب الأحوال الدنيوية فإنه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللائقة بذلك العمل.

﴿أُولَئِكَ الَّذِين لَيْسَ لَهُمْ في الآخِرة إلاَّ النَّارُ﴾ أي أولئك الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ولا يبتغون بأعمالهم وجه الله، ولا يسعون إلى ثوابه ليس لهم حظ في الآخرة إلا عذاب النار ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فيها﴾ وبطل ما صنعوه في الدنيا من أعمال الخير لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانوا يَعْمَلُونَ﴾ وباطل في ذاته ما كانوا يعملونه في الدنيا لأنهم لم يعملوه لوجه الله فلا نفع ولا خير لهم فيه، ولا ثواب لهم عليه من الله لأن الأعمال بالنيات كما قال النبي ﷺ «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

(١) متفق عليه.

فالإسلام لا يثيب على الأعمال الصالحة في الآخرة إلاّ إذا كانت خالصة لوجه الله لا يشوبها رياء ولا سمعة ولا أي مطلب دنيوي، ولا أي غرض سوى رضاء الله، وبهذا ترتقي أعمال الإنسان إلى السمو والرفعة لأنه لا يخالطها حظ من حظوظ النفس وشهواتها، وبهذا يكون نفعها أعم، أما أعمال الخير التي تقوم على الرياء وابتغاء الشهرة والجاه، فيذهب نفعها في خضم أهواء النفس ورغباتها وأهوائها وشهواتها.

ثم يبين القرآن من كان على بصيرة من ربه فاهتدى بذلك إلى الحق:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ والمراد بالبينة: الحجة والبيان والبرهان من الله الذي يدل على الحق والصواب، والبينة هي القرآن، والذي كان على بيّنة من ربه هو الرسول محمد ﷺ وأتباعه المؤمنون. والمعنى: أفمن كان على حجة واضحة وبرهان من عند ربه يدل على أن القرآن مُنزل من عند الله فاتبع هداه، وجواب الاستفهام محذوف لدلالة الكلام عليه وهو: كمن هو في ضلال وكفر ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي يتبعه شاهد من الله هو إعجاز القرآن الذي عجز جميع البلغاء عن الإتيان بمثله فهو الذي يشهد بصحة نبوة محمد ﷺ.

وقد يكون الشاهد جبريل كما ذهب بعض المفسرين، ويتلوه: من التلاوة بمعنى القراءة فيكون المعنى: أفمن كان على برهان جلي من ربه يدل على أن الإسلام حق وهو القرآن، ويتلو هذا القرآن على رسول الله ﷺ شاهد من الله وهو جبريل عليه السلام ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ ومن قبل نزول القرآن كان الكتاب الذي أنزله الله على موسى وهو التوراة ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ وهذه التوراة كانت إماماً لبني إسرائيل يرجعون إليها في أمور الدين والأحكام والشرائع، كما أنها كانت رحمة لهم لأنها الهادي إلى الحق والصواب ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي أولئك الذين وصفهم الله على بينة من ربهم يؤمنون بأن الإسلام هو الدين الحق وبأن محمداً رسول الله حقاً ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ والأحزاب: جمع حزب، وهم الذين تحزبوا وتجمعوا من أهل مكة وغيرهم لمحاربة رسول الله ودعوته، أي من يكفر بهذا القرآن من هؤلاء

وبما جاء به رسول الله ﷺ من الهدى فإن نار جهنم هي التي جعلها الله موعداً لهم في الآخرة.

﴿فَلا تَكُ في مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي فلا تكن أيها العاقل في شك من أن هذا القرآن من عند الله ومن أن ما جاء به محمد هو الحق الثابت من عند ربك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بذلك إما لقصور عقولهم أو لعنادهم أو لاستكبارهم وإيثارهم الدنيا على الآخرة.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

شرح المفردات

ومن أظلم: أي لا أحد أشد ظلماً.

افترى على الله: تعمّد الكذب على الله.

يعرضون على ربهم: أي يحاسبهم ربهم على أعمالهم.

الأشهاد: جمع شاهد أو شهيد وهم من يشهد على كفرهم من الملائكة والنبيين.

يصدون عن سبيل الله: يمنعون غيرهم ويصرفونهم عن دين الله.

ويبغونها عوجاً: يطلبون لدين الله العوج ويصفونه بذلك تنفيراً للناس منه.

لم يكونوا معجزين في الأرض: غير قادرين على الإفلات من عقاب الله بالهرب.

أولياء: نصراء.

لا جرم: أي لا محالة.

وضل عنهم ما كانوا يفترون: وغاب عنهم في الآخرة ما كانوا يفترون من أكاذيب.

اخبتوا إلى ربهم: خضعوا له واطمأنوا إليه وأطاعوه.

هل يستويان: هل يتماثلان.

من صفات الكافرين

ويتابع القرآن فيحذر الكافرين من سلوكهم المناوىء لدين الله:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي لا أحد أشد ظلماً ممن تعمّد الكذب على الله بأن زعم أن الأصنام تشفع لعابديها، أو نسب إلى الله ما لا يليق به من وجود شريك له أو ولد، أو وصف الله بما لا يجوز وصفه به، أو تقوّل على الله ما لم يُنزّل على رسله ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِم﴾ أولئك الكاذبون يعرضون على ربهم ليحاسبهم على افتراءاتهم ﴿وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذين كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِم﴾ والأشهاد: جمع شاهد أو شهيد وهو من يشهد على الكفار بكفرهم وهم الملائكة الذين كانوا يحصون أعمال كل إنسان في الدنيا وكذلك الأنبياء والمؤمنون. هؤلاء يشهدون على من افتروا الكذب على الله، وفي هذه الشهادة فضيحة للكاذبين وخزي وذل لهم أمام الخلائق وتشهير بهم ﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمينَ﴾ هذا من تمام كلام الأشهاد أو من كلام رب العالمين. والمعنى ألا بعداً وطرداً من رحمة الله لهؤلاء الظالمين المفترين على الله كذباً.

ومن صفات هؤلاء الكافرين ﴿الَّذين يَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ﴾ وسبيل الله طريقه الموصل إلى رضائه وهو دين الإسلام، والصد عنه هو منع الناس وصرفهم عن

الدخول فيه كما صرفوا أنفسهم عنه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ أي ويريدون أن يكون سبيل الله معوجّاً حسب أهوائهم بإلقاء الشبهات عليه لينفّروا الناس عن الدخول فيه ﴿وهم بالآخرة هُم كَافِرونَ﴾ وهؤلاء الكافرون يجحدون وجود الحياة الآخرة وما فيها من حساب على أعمالهم وما يتبع ذلك من ثواب أو عقاب من الله.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونوا مُعْجِزِينَ في الأَرْضِ﴾ أي هؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله لن يخرجوا عن قدرة الله على عذابهم في الدنيا إذا أراد تعجيل العذاب لهم ولا قدرة لهم على الفرار من الله لأنهم في قبضته وملكه ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَولِيَاءَ﴾ وليس لهؤلاء من أنصار قادرين على تخليصهم من عذاب الله ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ العَذَابُ﴾ أي لهم العذاب على قدر كفرهم ومعاصيهم ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرونَ﴾ وإن سبب تشديد العذاب لهؤلاء الكافرين هو انصرافهم عن السمع المفيد والبصر النافع، فهم صم عن سماع القرآن لثقله على نفوسهم الفاسدة، وهم عمي عن النظر في آيات الله في الكون التي تشهد بوحدانية الله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أولئك الذين جنوا على أنفسهم وأوردوها المهالك بسبب افترائهم الكذب على الله ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وغاب عنهم في الآخرة الآلهة التي كانوا يزعمون أنها شفعاء لهم، وما كانوا يفترون من أكاذيب ودعاوى باطلة ﴿لا جَرَمَ أَنَّهُم في الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ لا جرم: بمعنى لا بد أو لا محالة أو حقاً، إنهم في الآخرة سيخسرون نعيم الجنة بسبب سلوكهم المعوج وضلالهم عن طريق الحق.

مصير المؤمنين يوم القيامة

وبعد أن بيّن الله مصير الكافرين أتبع ذلك ببيان حسن عاقبة المؤمنين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِم﴾ الإخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب، أي إن الذين صدّقوا بوجود الله ووحدانيته وعملوا الأعمال الصالحة التي ترضيه واطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع

والتواضع ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ﴾ أي هؤلاء هم أهل الجنة وأصحابها هم فيها خالدون لا يبرحونها ولا يخرجون منها.

ثم ضرب الله مثلاً لفريق الكافرين ولفريق المؤمنين بقوله: ﴿مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى والأَصمِّ والبَصِيرِ والسَّمِيعِ﴾ أي مثل الكفار كمثل الأعمى الذي لا يبصر والأصم الذي لا يسمع، فهم لا ينتفعون بما بين أيديهم من الهدى، وأما المؤمنون فحالهم وصفاتهم كحال من جمع بين البصر السليم والسمع الواعي فاهتدى إلى ربه، وميّز الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، فسلك سبيل الخير وتجنب الشر ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ أي هل يتساوى الفريق المؤمن الذي استفاد من سمعه وبصره في إدراك الحق مع الفريق الآخر الذي اختار الكفر فكان كمن طمس على قلبه فلا يرى ولا يسمع ما يلقى إليه من الهدى ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتذكرون بما بينهما من التفاوت والتباين فتعتبروا به وتبتعدوا عن طريق الضلال وتسلكوا الطريق المستقيم؟

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) ﴾

شرح المفردات

نذير: محذّر ومخوّف من عذاب الله.

مبين: واضح.

الملأ: الأشراف والقادة وأصحاب الجاه والغنى.

أراذلنا: سفلتنا وأقل الناس شأناً (جمع أرذل).

بادي الرأي: ما يبدو من الرأي للوهلة الأولى دون تعمق وإمعان نظر.

أرأيتم: أخبروني.

على بينة: على بصيرة وحجة وبرهان.

فعمّيت: خفيت والتبست عليكم.

أنلزمكموها: أنكرهكم على اتباعها ونجبركم عليها؟

قصة نوح عليه السلام مع قومه

وبعد الكلام عن مظاهر قدرة الله في الكون ومصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة تذكر السورة طائفة من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم مبينة مآل المكذبين لهم، وما حلّ بهم من هلاك في الدنيا لبيان العظة والعبرة لمن جاء بعدهم من الأمم.

وفي مقدمة هؤلاء الأنبياء نوح عليه السلام، وقد جاء ذكره في القرآن في عدّة سور[1].

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم نوحاً ليرشدهم إلى طريق الحق والصواب، وليحذّرهم مما سيصيبهم من عذاب إن استمروا على عبادتهم للأصنام معرضين عن عبادة الله وحده، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِني لَكُمْ نَذِيرٌ مُبينٌ﴾ أي ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ليقول لهم: إني محذركم تحذيراً واضحاً من غضب الله وعقابه إن بقيتم على كفركم، والإنذار هو الإعلام بالشيء مع بيان عاقبة من خالفه **﴿أن لا تَعْبُدوا إلاّ اللَّهَ﴾** أي أرسلناه ليدعو قومه لأن لايعبدوا إلاّ الله وحده ولا يشركوا به شيئاً **﴿إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُم عَذابَ يَوْمٍ أَليمٍ﴾** إني أخاف عليكم من عذاب الله يوم القيامة وهو عذاب شديد الألم.

(١) منها سورة الأعراف، وسورة المؤمنون، وسورة نوح.

أجاب القوم نوحاً بعد إنذاره إياهم **﴿فَقَالَ الملأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ: ما نَراكَ إلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا﴾** أي قال الأشراف الذين كذبوا برسالة نوح: ما أنت يا نوح إلا بشر مثلنا في الخلق والصورة والجنس ليست فيك مزية علينا بما تدّعيه من النبوة فكيف نستجيب لك؟ وقولهم هذا يدل على جهلهم، فكونه من البشر عامل فعّال يتيح له هدايتهم والقدرة على التفاهم معهم، كما يكون سلوكه قدوة لهم، ولو كان رسول الله من الملائكة لالتبس عليهم أمره ولم يستطيعوا اتخاذه قدوة لهم.

ثم أضاف أشراف قومه قائلين: **﴿وَمَا نَراكَ اتَّبَعَكَ إلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾** أي وما نرى في الذين اتّبعوك يا نوح إلا أقلنا شأناً من الفقراء وأصحاب الحرف الوضيعة والعمال **﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾** ظاهر الرأي، أي اتبعوك دون روية أو تفكير **﴿وَمَا نَرى لَكُم عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُم كَاذِبِينَ﴾** أي لا نعلم لك يا نوح ولمن اتبعك مزية وفضلاً علينا حتى ننقاد لكم، بل إننا نعتقد بأنكم كاذبون في دعواكم أنكم على الحق، والظن هنا بمعنى الاعتقاد اليقيني.

أمام هذا الرفض الذي لقيه نوح من قومه ردّ عليهم برفق:

﴿قَالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُم إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ ربِّي﴾ أي يا عشيرتي: أخبروني إن كنت مؤيداً بحجة واضحة من ربي **﴿وآتاني رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾** وأعطاني رحمة من عنده وهي النبوة وما أنزل عليّ من الشرائع التي هي سبب رحمة الله لمن اتبعها **﴿فَعُمِّيَت عَلَيْكُم﴾** فأُخفي عليكم أمرها، وحجبها عنكم جهلكم وكبرياؤكم **﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا[1] وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾** أي أنلزمكم إياها بالجبر والإكراه والحال أنكم كارهون لها نافرون منها إنكاراً وجحوداً واستكباراً؟ هذا أول نصّ في دين الله يدل

(١) أنلزمكموها: هذه الكلمة تصور جو الإكراه بإدماج ضمير المتكلم وضمير الغائب وضمير المخاطب في النطق وشد بعضها على بعض كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون، إضافة إلى ما يحمل هذا اللفظ من وقع شديد على الأذن مصوراً حالة من يُكرَه على شيء.

على أنه لا يصح أن يكون الدين بالإكراه، فإن الدين لا يصح اتباعه إلا عن يقين واقتناع، وهذا النص جاء تأكيده في القرآن بقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾

شرح المفردات

ملاقو ربهم: أي يلقون الله يوم القيامة فيجازيهم على أعمالهم.

تجهلون: أي تجهلون القيم الحقيقية التي يتفاضل بها الناس عند الله.

تذكّرون: تتعظون. أصلها تتذكرون حذفت تاء منها تخفيفاً.

ملك: أي ملك من الملائكة.

تزدري أعينكم: تنظرون إليهم باحتقار.

نوح ينصح قومه

ويتابع القرآن فيذكر ما قاله نوح لقومه من نصح وإرشاد مجرداً من أي غرض مادي:

﴿وَيَا قوم لا أسألُكُم عَلَيْهِ مَالاً إن أجْرِيَ إلاّ عَلَى اللّهِ﴾ أي يا قومي لا أطلب منكم مالاً على تبليغ رسالة الله إليكم، إن أجري وجزائي إلاّ على الله. إن ما قاله نوح قد قاله رُسُل الله جميعاً لأقوامهم فهم لم يبتغوا الثروة والجاه في دعوتهم إلى الله، بل كان

همهم الأوحد تبليغ رسالة الله إلى الناس مهما صادفوا من أذى واضطهاد وحرمان، وكان ثمرة ذلك أن أيدهم الله بنصره. هذا الإخلاص في الدعوة إلى الله، المجرد من أي غرض مادي، يجب أن يكون الوازع والهدف لجميع الدعاة والمصلحين في كل زمان ليكون لدعوتهم النفاذ إلى القلوب.

ويظهر أن طبقة الأشراف قد وعدت نوحاً الاستجابة إلى دعوته في حال طرده المساكين والفقراء المؤمنين من مجلسه ومعيّته ولكن نوحاً رفض طلبهم وقال: ﴿وَمَا أنَا بِطَارِدِ الذين آمَنُوا﴾ أي لست بطارد المؤمنين كما أردتم من مجلسي لمجرد احتقاركم إياهم لأنهم ليسوا في منزلتكم كما تدّعون ﴿إنَّهُم مُلاَقُوا رَبِّهِم﴾ إن هؤلاء الذين تسألوني طردهم سيلاقون ربهم يوم القيامة فيشكونني إليه إن طردتهم لفقرهم ﴿وَلَكِنّي أرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ ولكني أراكم قوماً تجهلون ما ينبغي أن يتفاضل به الناس عند الله حيث الكرامة للذين يتقون ربهم، أو بمعنى: أراكم قوماً فيكم جهالة وحمق دفعكم إلى التعالي على هؤلاء المؤمنين الفقراء.

وتابع نوح قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُني مِنَ اللّهِ إن طَرَدتُّهُم﴾ أي ويا قومي من ينجيني من عقاب الله إن طردت هؤلاء الفقراء من مجلسي وهم على ما هم عليه من الإيمان والاستقامة ﴿أفلا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ والزجر، أي أفلا تتذكرون أن لهم ربّاً ينصرهم إن طردتهم وينتقم لهم؟

﴿وَلاَ أقولُ لَكُم عِندِي خَزَائِنُ اللّهِ﴾ ولا أقول لكم إن النبوّة التي خصّني الله بها تجعلني أملك خزائن أرزاقه أتصرف فيها كما أشاء فأجعل من يتبعني غنياً ﴿وَلاَ أعْلَمُ الغَيْبَ﴾ ولا أعلم ما يغيب عن علم الناس من الأمور التي ستحصل في المستقبل فإن ذلك لا يعلمه إلاّ الله ﴿وَلاَ أقُولُ إنّي مَلَكٌ﴾ ولا أقول لكم إني ملك من الملائكة بل أنا بشر مثلكم اختصني الله بالنبوة ﴿وَلاَ أقُولُ لِلَّذين تَزْدَرِي أعْيُنُكم لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً﴾ ولا أقول في شأن المؤمنين الفقراء الذين تنظرون إليهم نظرة احتقار لن يؤتيهم الله خيراً إرضاء لرغباتكم ﴿اللّهُ أعْلَمُ بِمَا في أنْفُسِهِمْ﴾ الله هو الأعلم بما في نفوسهم

من خير أو شر، أما أنا فلا أعلم إلا ظاهراً من سلوكهم الذي يدل على إيمانهم ﴿إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إني لو قلت بأنهم لن ينالوا خيراً أكون من الظالمين لأنفسهم لأني حكمت على شيء لا سبيل لي إلى معرفته.

لقد أراد الله أن يبين من تلك الآيات على لسان رسوله نوح أنه ليس لطبقة الأغنياء والأشراف أي امتياز على من سواهم، فالمجتمع الإنساني الذي يريده الله هو مجتمع المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، والتفاضل بينهم يجب أن يقوم على أساس تقوى الله والعمل الصالح وقد جاء في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

شرح المفردات

جادلتنا: الجدال هو المناقشة على سبيل المنازعة وتغليب رأي على رأي آخر.

بمعجزين: بمفلتين وهاربين من عذاب الله.

يغويكم: يضلكم.

افتراه: اختلقه من عند نفسه ونسبه إلى الله تعالى.

إجرامي: الإجرام اكتساب الذنب.

إصرار قوم نوح على الكفر

وبعد أن أفحم نوح قومه بالحجج القاطعة التي تبين جهلهم وعنادهم ولم يجدوا مجالاً للرد عليه لجأوا إلى أسلوب التحدي وطلبوا من نوح أن ينفّذ ما أنذرهم به من العذاب إن استمروا على كفرهم.

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ أي يا نوح قد ناقشتنا وخاصمتنا وبالغت في ذلك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فأتنا بما أوعدتنا من العذاب الذي هددتنا به إن كنت صادقاً في دعواك أنك نبي وأن الله يعاقبنا على عصيانه، أرادوا بذلك تعجيل العذاب وعدم إمهاله.

أجاب نوح قومه على تحديهم له: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ﴾ أي إنما يأتيكم الله بالعذاب الموعود إن شاء إهلاككم ﴿وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ وما أنتم بمستطيعين الهروب من عذاب الله والإفلات منه إن شاء إنزاله بكم.

وتابع نوح مخاطبة قومه: ﴿وَلاَ يَنْفَعُكُم نُصحي إن أَرَدتُّ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ أي لا ينفعكم ما أبذله لكم من نصح لمجرد إرادتي الخير لكم ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يريدُ أن يُغويَكُم﴾ أي إن كان الله يريد أن تضلوا عن طريق الحق لعلمه فساد قلوبكم وإصراركم على الكفر، وفُسِّر الإغواء هنا بالإهلاك لأن الضلال يفضي إلى الهلاك ﴿هُوَ رَبُّكم وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هو الله مالك أمركم ومربّيكم وإليه مرجعكم بعد الموت ليحاسبكم على أعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ الكلام هنا صادر عن قوم نوح والمعنى: بل أيقول قوم نوح عن نبيهم إنه اختلق هذا الدين الذي يزعم أنه من عند الله، لأن الكلام يدور على قصة نوح. وقد تكون الآية (أم يقولون افتراه) جملة معترضة وأنها من كلام مشركي قريش، فيكون المعنى: بل أيقول المشركون من قومك يا محمد إنك قد اختلقت هذا القرآن ﴿قُل إنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إجرامي﴾ أي قل لهم يا نوح - أو يا محمد - إن كنت قد

اختلقت ما أبلغتكم إياه من رسالة الله لكم فعليّ إثم إجرامي بالافتراء على الله ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ وأنا بريء من آثامكم وإجرامكم .

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

شرح المفردات

فلا تبتئس : فلا تحزن ولا تغتمّ .

الفلك : السفينة ، ويستعمل الفلك للمذكر والمؤنث والواحد والجمع .

بأعيننا : تحت رعايتنا وتوجيهنا .

ملأ : جماعة من الأشراف .

يخزيه : يذله ويهينه .

عذاب مقيم : عذاب دائم خالد .

جاء أمرنا : جاء وقت تنفيذ أمر الله بعذابهم .

فار التنور : نبع الماء بشدة من التنور وهو الموقد الذي يخبز فيه الخبز .

زوجين : أي ذكراً وأنثى .

سبق عليه القول : حق قضاء الله عليه بالهلاك .

نوح يصنع السفينة بأمر ربه

وبعد هذه الفترة الطويلة الشاقة التي قضاها نوح مع قومه وهو يحاول باستمرار هدايتهم بكل الوسائل وهم يرفضون دعوته ويصرون على عنادهم ، عندئذ نزل عليه الوحي من ربه ينير له السبيل :

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ أي أوحى الله إلى نوح : أنه لن يستجيب لدعوتك أحد من قومك بعد الآن غير من سبق منه الإيمان قبل ذلك ﴿فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يضق صدرك بكفرهم وانغماسهم في الآثام لأننا سننتقم منهم قريباً .

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي واصنع يا نوح السفينة بحفظنا إياك حفظ من يراك ، وتحت رعايتنا وإرشادنا عن طريق وحينا لك بكيفية صنعها ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُغْرَقُونَ﴾ ولا تخاطبني يا نوح في شأن هؤلاء الظالمين بأن تطلب مني أن أرحمهم أو دفع العذاب عنهم ، فقد صدر قضائي بإغراقهم فلا مجال للرحمة بهم .

أما بشأن دعاء نوح على قومه بالهلاك كما جاء في سورة نوح : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح : ٢٦] ، فقد صدر هذا الدعاء منه بعد يأسه من إيمان قومه .

﴿وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وكلما مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِروا مِنْهُ﴾ أي ويشرع نوح بصنع السفينة التي ألهمه الله صنعها وكلما رآه جماعة من أشراف قومه وهو يقوم بقطع الأشجار وتهيئة الألواح وضم بعضها إلى بعض استهزأوا به وسخروا منه ، وقالوا له على سبيل التهكم به : يا نوح صرت نجاراً بعد أن كنت نبياً ، ولم يدركوا السر في هذا التغيير ؛ هنا يرد عليهم نوح بقوله : ﴿قَالَ إن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإنَّا نَسْخَرُ مِنْكُم كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ أي إن تسخروا منا أنا ومن اتبعني من المؤمنين فإننا عن قريب سنسخر

منكم لما سيحل بكم من هلاك ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي فسوف تعلمون عن قريب من هو جدير بالسخرية حين يأتيه عذاب من الله يجلب له الذل والهوان في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ويحل عليه في الآخرة عذاب خالد دائم.

وينتهي نوح من صنع السفينة وينتظر الوقت المحدد في علم الله لركوب السفينة وقد أعلمه الله بذلك الوقت بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي حتى إذا جاء حلول وقت نزول العذاب بهم بحصول الطوفان ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي نبع الماء بقوة من جوف التنور، والتنور هو الشيء الذي يخبز فيه الخبز، وقيل التنور هو وجه الأرض، أي نبع الماء بشدة من الأرض كما قال تعالى في وصف بدء الطوفان: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١-١٢].

حتى إذا حدث هذا كله ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي أوحى الله إلى نوح أن احمل في السفينة من كل صنف من المخلوقات التي أنت بحاجة إليها زوجين اثنين: ذكراً وأنثى، أما الأنواع التي أمره الله بحملها معه في السفينة فلم يرد في تحديدها نص صريح ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي واحمل معك في السفينة من آمن من أهلك إلاّ من حق عليه قضاؤنا بهلاكه وهما ابنه وإحدى زوجاته التي ورد ذكرها في القرآن ﴿وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي واحمل معك الذين استجابوا لدعوتك وآمنوا من قومك، ولم يكونوا من حيث عددهم إلاّ قلة.



﴿۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

شرح المفردات

مجراها: أي وقت جري السفينة في الماء.

مرساها: وقت إرسائها على اليابسة.

وكان في معزل: وكان في مكان منفرد.

سآوي: سألتجىء.

يعصمني: يحميني من ماء الطوفان.

لا عاصم: لا مانع ولا حافظ.

ويا سماء أقلعي: ويا سماء أمسكي عن إنزال المطر.

وغيض الماء: نقص الماء وذهب في الأرض.

واستوت على الجودي: واستقرت السفينة على جبل الجوديّ بالقرب من الموصل.

بعداً للقوم الظالمين: هلاكاً وبعداً لهم عن رحمة الله.

حصول الطوفان والوصف البليغ لانحساره

وبعد أن ظهرت علامات بدء الطوفان قال نوح عليه السلام لأهله والمؤمنين الذين أمره الله بحملهم معه: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أي اركبوا فيها متيمنين بذكر اسم الله تعالى قائلين باسم الله وقت جريها فوق الماء ووقت

إرسائها ووقوفها عند المكان الذي شاء الله أن يوقفها ويثبتها عنده، فجري السفينة وإرساؤها هو بإذن الله وحمايته فلا داعي للخوف من ركوبها ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن ربي لعظيم الغفران لذنوب المؤمنين رحيم بالمؤمنين فهو ينجيهم من كل سوء.

ثم بين الله حال السفينة وهي تمخر بهم عباب الماء ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِم فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي وهي تجري بهم بعد ركوبهم فيها في موج مرتفع كالجبال لشدة العواصف التي يتأثر بها الموج.

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ وقبل إبحار السفينة وقبل ارتفاع الماء نادى نوح ابنه بداعي الشفقة وكان في مكان منفرد منعزل عنه ﴿يَا بُنَيَّ[1] ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ أي يا بني اركب معنا نحن المؤمنين في السفينة وَدَعْ ما أنت عليه من الكفر لتنجو من الغرق ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ أي قال الابن: سألجأ إلى جبل مرتفع يحميني من الماء، فرد عليه أبوه قائلاً: ﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾ أي لا نجاة اليوم من العذاب إلاّ من رحمه الله بلطفه وإحسانه وقدّر له النجاة، وعبّر نوح عن العذاب بأمر الله تهويلاً لشأنه لأن أمر الله لا مردّ له، وأَمْرُ الله هو حكمه القاضي بهلاك الكافرين من قوم نوح ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ وفصل الموج بين نوح وابنه فكان الابن من جملة من أغرقهم الله بسبب كفرهم.

ثم يصف القرآن انتهاء الطوفان بتلك الآية التي ترتقي إلى أعلى درجات البلاغة:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الماءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

المتأمل في هذه الآية يراها تصف انتهاء الطوفان وهلاك الظالمين بأوجز لفظ

(١) يا بني: تصغير ابن مضافاً إلى ياء المتكلم وتصغيره هنا تصغير شفقة وحنان.

وأبلغه، فترى فيها حسن النسق[1] حيث أتى بجملها معطوفة على بعضها على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة، فقد بدأ الله بذكر الأهم وهو إطلاق أهل السفينة إلى البر، ولا يحصل ذلك إلا بانحسار الماء عن الأرض فلذلك أمر الله الأرض بأن تبلع ماءها لأن الطوفان ابتدأ منها. وقد أضاف القرآن الماء إلى الأرض لاتصال الماء بالأرض ولأن أصله من الأرض تبخره الشمس فيصير غيوماً ثم يهبط مطراً إلى الأرض. ولفظة ﴿ابلعي﴾ تصور لما يراد أن تصنعه الأرض وهي أن تبتلعه بسرعة فهي هنا أفضل من امتصي مثلاً لأن البلع حقيقته انزال الطعام والشراب إلى الجوف بدون مضغ في الفم، وهو هنا استعارة لإدخال الماء في باطن الأرض بسرعة.

ثم إن الأرض لو ابتلعت الماء ولم تنقطع الأمطار المنهمرة فإنه سيكون معوضاً لما تبتلعه الأرض من الماء لذلك أمر الله السماء بقوله: ﴿ويا سَمَاءُ أَقْلِعي﴾ أي أمسكي عن إرسال المطر، وإقلاع السماء مستعار لكفّ نزول المطر منها.

ثم تأمّل التجانس والإيقاع الموسيقي بين (ابلعي) وبين (أقلعي).

وتأمل كيف أن القرآن لم يقل «يا أرض ابلعي ماءك فبلعت» بل قال فقط (يا أرض ابلعي ماءك) لأن الأمر الإلهي لا يُردّ والكون خاضع لكلمته وهي ﴿كُنْ فيكون﴾.

ثم أشار الله إلى النتيجة التي ترتبت على ذلك بقوله: ﴿وغِيضَ المَاءُ﴾ أي نقص الماء ونضب فإن غيض تشير إلى انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ومطر السماء ولولا ذلك لما غاض الماء[2].

ثم بيّن الله الغاية التي توخاها الطوفان بقوله: ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ وحقيقة معناها: هلك من قضى الله هلاكه ونجا من قدّر له النجاة، وإن الإهلاك والإنجاء كانا بأمر الله المطاع وقضائه الذي لا يُرَدّ.

(١) حسن النسق: هو عبارة عن أن يأتي المتكلم بالكلمات من النثر والأبيات من الشعر متتاليات متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً لا معيباً ولا مستهجناً.

(٢) هو ما يعرف في علم البلاغة باسم (الإشارة) وهو أن يكون اللفظ القليل دالاً على المعنى الكثير.

وأخيراً ينهي الآية بقوله ﴿وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمينَ﴾ وهذا دعاء على الهالكين أي هلاكاً وطرداً لهم من رحمة الله، وتبًا لهؤلاء القوم الذين ظلموا أنفسم بإيثارهم الكفر على الإيمان، ووصفهم بالظلم ليعلم الذين جاءوا من بعدهم أن هلاكهم كان بسبب الظلم احتراساً لما قد يتوهم أن الهلاك بعمومه لهم قد شمل من لا يستحق العذاب. وجاءت كلمة (بُعداً) دون (هلاكاً) إشارة إلى أن الهلاك لهؤلاء الظالمين إنما قصد به إبعادهم عن الفساد في الأرض.

الطوفان شمل قوم نوح

الظاهر في القرآن يدل على أن الطوفان قد شمل قوم نوح فقط وهم الذين عصوا الله وكذبوا رسول الله وهذا لا يقتضي أن يكون الطوفان عامًّا للكرة الأرضية كلها إذ لا دليل على أن البشر كانوا يقطنون الأرض كلها.

وقد أدت الحفريات التي قام بها السير وولي في العراق سنة ١٩٢٠ إلى اكتشاف آثار للطوفان من أوانٍ فخارية وأدوات صوانية مما كان يستعمل في العصر الحجري، وكذلك آثار من نبات المستنقعات جرفتها المياه من المنطقة الوسطى لنهر الفرات.

وقد سجل السكان الذين عمروا الوادي بعد الطوفان قصة ذلك الطوفان على اثني عشر لوحاً ذكروا فيها غرق سكان هذه المنطقة باستثناء رجل ورع بنى سفينة ركب فيها وأخذ معه أفراد أسرته وبعض الحيوانات والدواب وهؤلاء وحدهم هم الذين كتبت لهم النجاة[1].

وما ذكره القرآن من أن الله أمر نوحاً بأن يحمل معه في السفينة من كُلٍّ زوجين اثنين من الحيوانات يدل على قلة الحيوانات في تلك البقعة ولو كان الطوفان عامًّا للأرض لاستلزم عشرات بل مئات السفن لاستيعاب أنواع الحيوانات الموجودة على الأرض مع استحالة جمعها في ذلك الزمن.

(١) نقلاً باختصار عن كتاب (الأرض التي نعيش عليها) تأليف: روث مور ـ ترجمة اسماعيل حقي.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

شرح المفردات

أحكم الحاكمين: خير الحاكمين حكماً لأنك لا تحكم إلاّ بالحق.

إني أعظك: إني أنصحك وأرشدك.

أعوذ بك: ألتجيء إليك وأحتمي بك.

بسلام منا: بسلامة وأمن من الله.

وبركات: خيرات ثابتة دائمة.

أمم: جمع أمة والأمة الجماعة الكثيرة من الناس التي يجمعها نسب واحد أو لغة أو موطن أو دين.

سنمتعهم: يقال تمتع: إذا عاش في رغد وسلامة فيما يحب.

يمسهم: يصيبهم.

أنباء الغيب: الأخبار الغيبية التي هي خافية عن البشر.

العاقبة: خاتمة الشيء والمصير الأخير فيه.

نوح يطلب من الله النجاة لابنه

تقدم في الآيات السابقة أن الموج حال بين نوح وبين ولده، وهنا يصور لنا القرآن نفسية نوح وقد أخذته عاطفة الأبوة والشفقة على ابنه فسأل ربه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي إنّ ابني كنعان هو من أهلي الذين وعَدْتَ أن تنجيهم من الغرق ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي وإنّ كل وعد يصدر عنك يا رب هو الحق الذي يتحقق وأنت أعلم الحكام وأعدلهم.

لقد سأل نوح ربَّه ذلك لأنه لم يكن قد رأى ابنه يغرق، أو أنّ كفره لم يكن مؤكداً لديه، ويجوز أن يكون الدعاء بعد غَرَقِ من غَرِقَ أي نادى ربه أن يغفر لابنه وأن لا يعامله معاملة الكافرين في الآخرة.

لقد اكتفى نوح بقوله ﴿ربِّ إنّ ابني مِنْ أهلي﴾ دون أن يصرّح بمطلوبه وهو نجاة ابنه تأدباً مع الله واعتقاداً منه بأنه خبير بما يجول في نفسه.

فأجابه الله سبحانه ﴿قَالَ يَا نوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي إنّ ابنك هذا ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم من الطوفان ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ إنّ عمله لا صلاح فيه حيث اختار الكفر على الإيمان فخرج بذلك عن كونه من أهلك لانقطاع الصلة بين المؤمن والكافر، ولأن نجاة أهلك هي بسبب إيمانهم لا بسبب نسبهم إليك، والله لا يحابي أحداً إكراماً للآباء الصالحين، ولو كانوا من الأنبياء ومن يغترّ بنسبه ولا يعمل بما يُرضي الله فهو جاهل بدين الله.

وقريب من هذا المعنى هو ما نهى الله المؤمنين بأن يخصّوا غيرهم بالود إذا كانوا يعصون الله ولو كانوا من أقرب الأقرباء إليهم نسباً، فقال الله سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وبعد أن أخبر الله نوحاً بأن ابنه ليس من أهله بسبب كفره نهاه عن أن يطلب منه ما

لا يعلم وجه الصواب فيه فقال سبحانه ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ والجهل هنا كناية عن الذنب، أي إني أحذّرك وأنهاك أن تكون من جملة الآثمين بسبب سؤالك إيانا ما لا تعلم يقيناً أنه حق وصواب، وهنا يعترف نوح بأنه أذنب وعصى ربه بسؤاله هذا فقال:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي يا رب إني ألتجىء إليك وأحتمي بك أن أسألك ما ليس لي به علم أنه جائز وصواب ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي وإن لم تتفضل عليّ بمغفرتك وترحمني برحمتك الواسعة أكن من الخاسرين الذين ضلوا عن سبيلك.

وبعد أن ابتعلت الأرض ماء الطوفان واستقرت السفينة على الجبل جاء النداء الرباني لنوح:

﴿قِيلَ يَا نوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ أي قالت الملائكة بأمر الله تعالى، أو قال الله تعالى: يا نوح انزل من السفينة على الأرض مصحوباً بسلام منا مع بركات وخيرات دنيوية وأخروية عليك ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ وعلى أمم ناشئة ممن معك من المؤمنين وهم المتشعبون من أولادهم وذريتهم، وقد تشعّب كثير من الأجناس من أولاد نوح ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وأمم ستنشأ من ذريتهم ليسوا على طريقتهم في الإيمان والعمل الصالح، سنمتعهم في الدنيا فينغمسون في شهواتها المحرمة وينصرفون عن هدى الله، ثم يصيبهم في الآخرة عذاب شديد الإيلام.

ثم اختتم الله قصة نوح عليه السلام مع قومه بقوله:

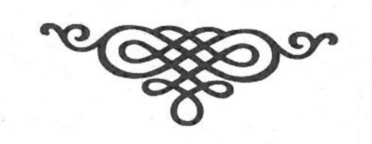
﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ أي تلك القصة عن نوح قصصناها عليك يا محمد عن طريق وحينا إليك وهي من أنباء الغيب الماضية ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ما كنت تعلمها بهذه الصورة الصادقة ولا يعلم تفاصيلها قومك من قبل، فاصبر كما صبر نوح

على إعراض قومه عنه وإيذائهم له، إنّ العاقبة المحمودة بالظفر في الدنيا والفوز في الآخرة هي للمتقين الذين يتّقون ما حرّم الله.

ولقد صدق الله وعده ونصر رسوله محمداً ﷺ على أعدائه كما نصر نوحاً من قبل، وهذا من أعظم الأدلة على أن القرآن وحي من الله وأن محمداً رسول الله حقاً.

هذه السورة نزلت بمكة وجاءت بهذه التفاصيل عن نبي الله نوح عليه السلام حيث لم يكن هناك أحبار ولا رهبان ولا ترجمة للتوراة إلى العربية ليتلقى محمد هذه الأحداث عن حياة نوح كما أن التوراة لم تذكر كل هذه الوقائع عن نوح. مع العلم أن محمداً ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، كما كان قومه يجهلون هذه الحقائق عن نوح عليه السلام، وهذا ما أشار إليه القرآن من قبل **﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾**.

فلو كان قوم محمد يعلمون قصة نوح ونقلها رسول الله عنهم لكذبه الكافرون وادعوا أن هذه القصة مشهورة بينهم ولكان لهم حجة قوية في القضاء على دعوته وتنفير الناس من حوله وهذا ما لم يحصل قط، لأن جلّ علمهم أنه كان في الزمن الغابر نبي يقال له نوح أصاب قومه طوفان فأغرقهم. كما نرى في قصة نوح دروساً إلٓهية وعبراً اجتماعية أشرنا إليها مما يشهد بمصدرها الإلهي، بالإضافة إلى البلاغة القرآنية في سرد هذه القصة والتي عجز كل بلغاء الأرض عن مجاراتها والإتيان بمثلها.



﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾

شرح المفردات

مفترون: كاذبون.

فطرني: خلقني وأبدعني.

يرسل السماء: ينزل المطر.

مدراراً: غزيراً متتابعاً.

ولا تتولوا مجرمين: ولا تنصرفوا عن الحق انصراف العتاة المستكبرين.

بيّنة: بحجة ودليل قوي.

عن قولك: أي من أجل دعوتك.

بمؤمنين: بمصدقين.

اعتراك: أصابك.

فكيدوني: فاحتالوا للإضرار بي.

لا تُنظرون: لا تمهلوني بكيدكم.

آخذ بناصيتها: مالكها وقاهر لها، والناصية هي مقدم الرأس وتطلق على الشعر النابت عليها.

صراط مستقيم: طريق الحق والصواب.

قصة قبيلة عاد

بعد أن بيّن الله ما حلّ بقوم نوح من هلاك أتبع ذلك بالكلام عن قوم (عاد) وهي قبيلة من العرب البائدة أي التي لم يعد لها وجود. وقد كانوا يسكنون الأحقاف بين اليمن وعُمان إلى حضرموت والشحر، وكانوا طغاة ممعنين في الكفر فأرسل الله إليهم رسوله (هوداً) عليه السلام، قال تعالى:

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾ أي وأرسل الله إلى قبيلة عاد رسولاً من بينهم. وقد عبّرت الآية عن هود عليه السلام بأنه أخو عاد للإيذان بأنه أخوهم في النسب وأنه نشأ بينهم وعرفوا صدقه وحسن سلوكه، فهو لا يخدعهم ولا يدعوهم إلاّ إلى الحق ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي قال هود لقومه ناصحاً لهم: اعبدوا الله وحده، واتركوا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ الافتراء هو الكذب، أي ما أنتم إلا كاذبون في اتخاذ الأصنام شركاء لله زاعمين أنها مستحقة للعبادة معه.

وتابع هود قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ أَجْراً﴾ أي يا قومي وأهلي لا أطلب منكم أجراً ومكافأة من مال وجاه على دعوتي إياكم لعبادة الله ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وإنما أجري على الله وحده الذي خلقني فهو الذي يكافئني على ذلك، قال لهم ذلك إبعاداً للتهمة عن نفسه من أنّ له غاية ومنفعة خاصة به في دعوتهم إلى عبادة الله. هذا وإنّ كل دعوة إلى الله مشوبة بالأطماع الدنيوية من الداعي، مصيرها الفشل ولا ثمرة تُرجى منها. وتابع هود قوله: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام هنا للإنكار، أي ألا تستعملون عقولكم فتميزون بين ما أدعوكم إليه من حق وما أنتم عليه من باطل؟

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ ويا قومي سلوا ربكم أن يغفر لكم ما سلف من ذنوبكم، ثم ارجعوا إلى عبادته وحده وطاعته، والندم على ما كان من أفعالكم فإنكم إن فعلتم ذلك ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً﴾ والسماء المراد بها

السحاب فكل ما علاك سماء، أي ينزل الله عليكم المطر غزيراً متتابعاً. وقد كان قوم هود أصحاب زروع وبساتين ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ أي ويعطكم قوة مضافة إلى قوتكم وذلك بتوفير الأسباب المؤدية إلى ذلك، وقد اشتهروا ببناء الحصون والقصور، كما كانوا ضخام الأجسام وهذا ما وصفهم الله بقوله: ﴿... وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ...﴾ [الأعراف: ٧]. وتابع هود قوله: ﴿وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ ولا تُعْرِضوا عما أدعوكم إليه مصرّين على آثامكم وما كنتم عليه من إجرام.

أجاب القوم رسول الله هوداً: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي ما جئتنا بحجة ولا برهان يقنعنا بصحة ما تقول ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ وما نحن بتاركي عبادة آلهتنا لمجرد قولك اتركوا عبادتها واجعلوا عبادتكم لله وحده ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وما نحن بمصدّقين لك فيما تدعوننا إليه.

وتابع القوم قولهم لنبيهم هود: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أي وما نقول في شأن ما جئت به إلاّ أنك أصابك بعض آلهتنا بشرّ وخبل بسبب سبِّك إياها وذمك لها مما أفقدك عقلك وجعلك تهذي وتتكلم بالخرافات عن آلهتنا وتدعو إلى عبادة إلّه واحد﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ﴾ قال هود: إني أُشهد الله على براءتي مما تجعلونه من غير الله شريكاً له سبحانه، واشهدوا أنتم على براءتي من كل عبادة تعبدونها من غير الله. ثم تحداهم هود بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً﴾ أي فاحتالوا للإضرار بي وحاربوني جميعاً أنتم وآلهتكم جميعاً ﴿ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾ ثم لا تمهلوني بل عجلوا بهلاكي والإضرار بي. هذا القول من هود يحمل كل الثقة بربه ويظهر عدم المبالاة بما يقوله قومه وبآلهتهم التي يعبدونها، كما يظهر مدى جرأته وعدم الخوف من أذاهم على الرغم من قوتهم وكثرتهم، وهذه سِمَةٌ من سمات أصحاب العقيدة الذين غمر الإيمان قلوبهم وسيطر حب الإصلاح على مشاعرهم، فلا وجل ولا رهبة من أنصار الباطل.

وسرّ هذه الجرأة من هود هو أنه متوكل على ربه حيث قال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أي إني فوّضت أمري واعتمدت عليه في دفع ضرّكم عني فهو مالك أمري وأمركم وهو ربي وربكم، وجدير بمن يعتمد على ربه ويفوّض أمره إليه أن يبدّل خوفه أمناً، وضعفه قوة. وتابع هود قوله: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ والدابة: هي كل حي يدب على وجه الأرض - أي يتحرك عليها - فيدخل فيها الإنسان والحيوان.

والمعنى: ما من حيوان يدب على الأرض إلا والله مالكه، وهو في قبضته وسلطانه وخاضع له، فالأخذ بناصية أيّ مخلوق حي عبارة عن قهره وغلبته، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالذلة والخضوع قالوا: ما ناصيته إلا بيد فلان أي هو مطيع له. والغرض من هذا الكلام الدلالة على عظمة قدرة الخالق وغلبة سلطانه ﴿إنَّ ربِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ إن ربي على طريق الحق والعدل، ولا يسلّط أهل الباطل من أعدائه على أهل الحق من رسله ومَن تابعهم بالإيمان والهدى.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

شرح المفردات

تولّوا: تُعرضوا، أصلها (تتولوا) حذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

ويستخلف ربي قوماً غيركم: يجعلهم الله خلفاء لكم في دياركم.

حفيظ: رقيب مهيمن.

أمرنا: عذابنا الذي أمرنا به وهو الريح العاتية.

عذاب غليظ: عذاب شديد لا يحتمل.

جحدوا بآيات ربهم: أنكروها وكفروا بها.

جبّار: العاتي المتسلط المتكبر.

وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة: أي جعلت اللعنة تابعة لهم في الدنيا، ولعنة الله هي الطرد من رحمته.

بعداً: هلاكاً.

هلاك قوم هود

وتابع هود عليه السلام تحذيره لقومه من مغبة كفرهم فقال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُم﴾ أي فإن أعرضتم عمّا دعوتكم إليه من الإيمان بوحدانية الله وترك المعاصي فلا عُذر لكم، فقد أبلغتكم رسالة ربي إليكم ﴿وَيَسْتَخلِفُ رَبّي قَوْماً غَيْرَكُم﴾ جملة مستأنفة مراد بها إنذارهم بحلول الهلاك بهم، ثم استبدالهم بقوم آخرين يأتون من بعدهم يرثون أرضهم وأموالهم، يعبدون الله ويطيعونه في أمره ونهيه ﴿ولا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً﴾ ولا تصيبونه بضرر قط بإعراضكم عما دعوتكم إليه وإنما تضرون أنفسكم ﴿إنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيءٍ حَفِيظٌ﴾ إن ربي رقيب على العباد ومهيمن عليهم فلا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهو الذي يحفظني ومن معي من المؤمنين أن تنالوا منا بسوء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجّيْنَا هُوداً وَالَّذِين آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ ولمّا جاء أمْر الله وقضاؤه بإهلاك قوم هود نجّى الله هُوداً والذين آمنوا معه من الهلاك والعذاب الذي حلّ بقومه بفضلٍ منه عليهم ورحمة بهم ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ونجاهم الله من عذاب شديد الغلظة عظيم الفتك بالكافرين وهذا العذاب أشار إليه القرآن في سورة الحاقة:

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٧].

﴿وَتِلْكَ عَـادٌ جَحَدُوا بِآيَـاتِ رَبِّـهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَـهُ﴾ أي تلك أمة عاد جحدوا بحجج الله الدالة على وحدانيته واستحقاقه وحده للعبادة وعصوا رسله، ولكنّ عاداً لم يعصوا إلاّ رسولاً واحداً وهو هود عليه السلام إذ لم يرسل الله لهم رسولاً سواه، ولكن عصيانه كعصيان جميع رسل الله لأنهم جميعاً يشتركون في وحدة الهدف وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده ﴿وَاتَّبَـعُـوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّـارٍ عَنِـيدٍ﴾ وبالإضافة إلى ذلك فإنهم اتّبعوا أمر كل جبار عنيد من رؤسائهم الطغاة وانقادوا إليهم انقياداً أعمى ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَـةً وَيَـوْمَ القِيَـامَـةِ﴾ ولحقت (بعاد) ولازمتهم اللعنة من الله في الدنيا ويوم القيامة، واللعنة من الله هي الطرد من رحمته.

دعوة للتحرر من سلطان الجبابرة يطلقها القرآن على أسماع المؤمنين في كل عصر من خلال قصة (عاد) ليتحرروا من سلطان كل حاكم ظالم، ومن كل معاند لا يرضخ للحق. وتعبير القرآن دقيق، فقد وصف الله المستبد الظالم بصفتين، الأولى: صفة (جبار) وهو المتكبر والمتعالي عن قبول الحق والإذعان له، وقيل: هو الذي يقتل ويضرب على الغضب. والصفة الثانية للمستبد الظالم أنه (عنيد) وهو الرافض للحق مع علمه به، والمباهي بما عنده من باطل.

فاتباع رغبات الجبابرة أمر ينافي الإيمان الصحيح، لقد هلكت عاد لأنها جحدت آيات ربها وعصت رسله واتبعت أمر كل جبار عنيد، مشيّعين باللعنة من الله في الدنيا والآخرة، وسيهلك كل من يسير على منوالهم.

وهنا أستدرك ما قاله علماء الإسلام في أمراء الظلم من أنه إن قُدِرَ على عزلهم من منصبهم بغير فتنة ولا ظلم وجب خلعهم، وإلا فالواجب الصبر لِما في ذلك من حقن الدماء ولجم عامّة الشعب من الوقوع في الفوضى وتدمير مرافق الأمة، هذا وقد جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ وَكَرِهَ إلاّ أن يُـؤْمَرَ بمعصية»[1].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

ويختم الله قصة قبيلة عاد بقوله: ﴿أَلاَ إِنّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّـهُمْ﴾ ألا فانتبهوا أنّ عاداً كفروا ربهم حيث عبدوا غيره وجحدوا نعمة الله عليهم ﴿ألا بُـعْداً لِعَـادٍ قَـوْمِ هُودٍ﴾ ألا هلاكاً لعاد قوم هود، وبعداً لهم عن رحمة الله، والملفت للنظر تكرار حرف التنبيه (ألا) وإعادة لفظ (عاد) للمبالغة في تهويل حالهم والحث على الاعتبار بهم.

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

شرح المفردات

واستعمركم فيها: جعلكم عُمّارها وسكانها.

مرجوًّا: موضع رجائنا وأملنا.

مريب: موجب للقلق وانتفاء الطمأنينة.

أرأيتم: أخبروني.

غير تخسير: غير أن تجعلوني خاسراً هالكاً.

قصة قبيلة ثمود

قبيلة ثمود هي من العرب البائدة أي التي هلكت ولم يبق منها أحد، وكانت مساكنهم في مناطق جبلية بالحِجْر وهو مكان يقع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى،

ولا يزال المكان الذي كانوا يسكنونه يسمى بمدائن صالح حتى اليوم، وكانوا يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم رسوله صالحاً ليدعوهم إلى عبادة الله وحده، قال تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أي وأرسل الله إلى قبيلة ثمود نبيًّا منهم وأخاً لهم في النسب يُسمى صالحاً مبلّغاً رسالة ربه ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ أي يا أهلي ويا عشيرتي آمنوا بالله وحده وأفردوه بالعبادة، ليس لكم أي إلّه يستحق أن يُعبد سواه ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ هو خلقكم من الأرض لأن كل بني آدم من صلب آدم وهو مخلوق من الأرض ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي أقدركم على عمارتها واستثمارها وبناء ما تسكنون فيها ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فاطلبوا من الله المغفرة لما سلف من ذنوبكم مع التوبة إليه، والتوبة إلى الله هي الرجوع إليه بالطاعة، والندم على ما فات من الذنوب والعزم على عدم العودة إلى معصيته ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ إن ربي الذي أدعوكم إلى عبادته قريب بعفوه وإحسانه لمن تاب من الشرك والخطايا، مجيب له إذا دعاه.

أجاب القوم نبيهم صالحاً على وعظه لهم: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ أي قالوا: يا صالح قد كنت بيننا موضع الرجاء والمحبة والتقدير، وكنا نرجو أن تكون فينا سيداً قبل أن تقول هذا القول ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أتنهانا يا صالح أن نعبد الآلهة التي كان يعبدها آباؤنا؟ لقد كانت عبادتهم لآلهتهم تقليداً لآبائهم، وهذا هو شأن كثير من أتباع الديانات في العالم اليوم ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وإننا نرتاب في صحة ما تدعونا إليه يا صالح من عبادة الله وحده، وهذا الأمر مثير للقلق وموجب للتهمة.

والشك: أن يبقى الإنسان متوقفاً بين النفي والإثبات، والمريب: هو الذي يُظن به السوء. ولكن صالحاً لم ييأس بل أجابهم بأسلوب حكيم:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي يا قومي أخبروني إن كنتُ على حجة ظاهرة، وبرهان واضح من ربي الذي هو مالكي ومتولي أمري ﴿وَآتَانِي مِنْهُ

رَحْمَةً﴾ وأعطاني من عنده النبوة التي هي رحمة لي ولكم ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ فمن يمنعني من عذاب الله وينجيني من عقابه إن أطعتكم وعصيته ولم أُبلّغكم رسالته ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي فما تفيدونني بموافقتكم واتباعكم إلا ضلالاً وإبعاداً عن الخير، كما تجعلونني خاسراً بإبطال أعمالي، وتعريضي لسخط الله.

﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨)﴾

شرح المفردات

آية: معجزة دالة على صدق نبوته.

فذروها: فدعوها واتركوها.

فعقروها: فذبحوها.

تمتعوا في داركم: أقيموا في بلدكم متنفعين بأرزاقكم وبكل ما يسركم.

من خزي: من الفضيحة والذلة.

الصيحة: الصوت المرتفع الشديد.

جاثمين: هامدين ميتين لا يتحركون.

كأن لم يغنوا فيها: كأن لم يقيموا في ديارهم أصلاً وهم في رخاء من عيشهم.

ألا بُعداً لثمود: أي هلاكاً لهم وبعداً لهم عن رحمة الله.

هلاك قبيلة ثمود

ويظهر أن قوم ثمود طلبوا من النبي صالح معجزة تدل على صدق نبوته فأيده الله بناقة خُلِقت على غير المعتاد وظهرت بينهم بخصائص معينة، فخاطب صالح قومه عندئذ:

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ أي هذه ناقة عظيمة الشأن شرّفها الله بنسبتها إليه وجعلها معجزة عظيمة تستدلّون بها على قدرة الله، وعلى صدقي في ما أبلّغكم به عن ربي.

ويروى عن هذه الناقة أنها خرجت من صخرة بقدرة الله سبحانه من غير ولادة وأنها كانت لها مميزات كثيرة ولا تشبه بقية الإبل، كما أنه قد كان لها يوم تشرب فيه وحدها من الماء الموجود لديهم، والقوم جميعاً يشربون في يوم آخر كما جاء في القرآن ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وبعد ظهور الناقة طلب صالح من قومه: **﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾** أي فاتركوها تأكل من أرض الله الواسعة بما فيها من المراعي ولا يتعرض لها أحد بمنع **﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾** ولا تصيبوها بأدنى سوء فيأخذكم عذاب عاجل فيهلككم.

ولكنّ قوم ثمود خالفوا ما أمرهم به نبيهم صالح: **﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾** أي فنحروا الناقة، وعند فعلهم هذا قال لهم صالح بما أوحى الله إليه: عيشوا في بلدكم هذا متمتعين بما تحبون فيه من مأكل ومشرب وغير ذلك لمدة ثلاثة أيام فهي آخر ما تبقّى لكم من متاع الدنيا ثم يأتيكم بعد ذلك عذاب عاجل **﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾** ذلك وعد الله الحق الذي لا خُلْفَ ولا إخلال بالوعد فيه.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أي فلما جاء أمر الله بإنزال العذاب بهم في الوقت المحدد نجى الله نبيه صالحاً ومن آمن معه من الهلاك برحمة وفضل منه سبحانه **﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾** ونجاهم الله من ذل العذاب المهين الذي نزل بكفار ثمود في ذلك اليوم **﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾**

إن ربك يا محمد الذي يرعاك هو القوي في بطشه الذي لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ وأصاب كفّار ثمود بفعلهم هذا صيحة قوية من السماء زلزلت الأرض بهم فأصبحوا هامدين صرعى لا حراك بهم **﴿كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾** كأنهم لم يقيموا في ديارهم ولم يعيشوا فيها من قبل في رخاء **﴿أَلَا إِنَّ ثَمُوداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾** ألا إن هؤلاء الظالمين من قبيلة ثمود كفروا بنعمة ربهم وجحدوها وخالفوا أمره فاستحقوا عذاب ربهم **﴿أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ﴾** ألا بُعداً لثمود عن رحمة الله وهلاكاً لهم. وفي تكرار حرف التنبيه (ألا) وتكرار لفظ (ثمود) تأكيد لطردهم من رحمة الله في الدنيا والآخرة، والاعتبار بما حلّ بهم.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

شرح المفردات

رسلنا: رسل الله هنا كانوا ملائكة بصورة بشر.

بعجل حنيذ: أي بعجل مشوي على الحجارة المُحْماة.

نكرهم: أنكرهم ونفر منهم.

أوجس منهم خيفة: أضمر من جهتهم خوفاً وفزعاً.

بعلي: زوجي.

يا ويلتى: كلمة تعجب.

حميد: من أسماء الله تعالى وهو المستحق للحمد لكثرة نعمه على عباده.

مجيد: من أسماء الله تعالى أي كثير الخير والإحسان أو ذو الشرف والكرم.

الروع: الخوف والفزع.

أواه: كثير التأوه من خوف الله، المتضرع في الدعاء.

منيب: راجع إلى الله تعالى.

قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة

ويتابع القرآن فيذكر لقاء إبراهيم مع الملائكة وما يحملونه من البشارة: **﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾** أي ولقد جاءت رسل الله من الملائكة إلى إبراهيم يبشرونه بما يسره بعد يأس من حصول ولد له. وقد جاءوا بصورة غلمان حسان الوجوه، وقد اختلفت الروايات في عددهم فقيل إنهم ثلاثة، وقيل عددهم أكثر من ذلك **﴿قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ﴾** أي قالوا لإبراهيم نسلّم عليك سلاماً فأجابهم عليكم سلام **﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾** أي فما أبطأ إبراهيم وما تأخر عن إكرامهم، بل أسرع إلى أهله فجاءهم بعجل حنيذ، أي مشوي بالحجارة المحماة ليأكلوا منه وهو لا يدري أنهم من صنف الملائكة بل اعتقد أنهم من البشر **﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾** أي فلما رأى إبراهيم أيدي ضيوفه لا تمتد إلى العجل ليأكلوا منه **﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾** شعر إبراهيم بالوحشة ونفر منهم وأحس في نفسه الفزع والخوف، لأن العادة عندهم أن الضيف إذا نزل بقوم ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه قد جاء يريد بهم شراً، فإذا أكل أمنوا له **﴿قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾** أي فلما رأى الملائكة أمارات الخوف والجزع بادية على وجه إبراهيم كشفوا له عن حقيقتهم وأنهم من صنف الملائكة لا يأكلون، وأخبروه بأن الله أرسلهم إلى قوم لوط لإهلاكهم جزاء اقترافهم فاحشة ما سبقهم إلى فعلها أحد من العالمين وهي: فاحشة اللواط.

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ وكانت امرأة إبراهيم واقفة لخدمة ضيوفها فسمعت ما جرى بينهم فضحكت فرحاً وسروراً لزوال الخوف عن زوجها ودخول الطمأنينة إلى قلبة، ولقرب عذاب قوم لوط لكراهتها سيرتهم الخبيثة **﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحٰقَ يَعْقُوبَ﴾** ثم بشرها الله على ألسنة ملائكته بأنها ستلد من زوجها إبراهيم ولداً يسمى إسحٰق الذي سينجب ولداً حفيداً لها يسمى يعقوب، وإسحق ويعقوب خصهما الله بالنبوة وقد قال تعالى: **﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾** [مريم: ٤٩].

وقد وجهت البشارة إليها لبيان أن الولد سيكون من صلبها فلو كانت البشارة لإبراهيم فلربما ظنت زوجته أن الولد سيكون من زوجة أخرى لأنها كانت عقيماً.

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾ أي قالت سارة امرأة إبراهيم بعد هذه البشرى: يا ويلتا، كلمة أرادت بها التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك، لقد قالت: أألد ولداً وأنا عجوز وقد صار زوجي شيخاً كبير السن؟

وقد ذكر المفسرون أن إسْحٰق وُلِدَ ولأبيه إبراهيم من العمر مائة سنة، وكان عمر أمه ساره حين بُشِّرت به تسعين سنة، وقيل تسعاً وتسعين سنة. وتابعت سارة قولها: **﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾** أي إن هذا الذي أسمعه لشيء عجيب لم تجر العادة لمن كان مثلنا في العمر أن ينجب أولاداً.

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي قالت الملائكة: أتستبعدين على قدرة الله بأن يرزقك ولداً في هذا العمر المتأخر، إنه ليس هناك أمر عجيب على قدرة الله **﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾** تلك رحمة الله ونعمه عليكم يا أهل بيت النبوة التي وسعتكم بكل خيراتها **﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾** إن الله مستحق الحمد لذاته كثير الخير والإحسان إلى عباده متصف بأعظم صفات المجد والشرف والكرم.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ فلما زال الخوف عن إبراهيم حين عرف

أن ضيوفه ملائكة **﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾** وسمع البشارة السارة بأنه سيرزق ولداً **﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾** أي أخذ يحاور رسل الله في شأن قوم لوط وكيفية عقابهم ومصير ابن أخيه لوط، وإبراهيم لا يجادل ربه وإنما يسأله ويطلب إليه، وأضاف الله سبحانه المجادلة إلى نفسه مع أنها كانت مع الملائكة لأن نزولهم لإهلاك قوم لوط كان بأمره، وقيل المراد بالمجادلة هنا «دعاء ومناجاة سأل بها إبراهيم عليه السلام ربه العفو عن قوم لوط خشية إهلاك المؤمنين منهم»[1] والمراد بالمجادلة ما ورد في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ . قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[2] [العنكبوت: ٣١ـ٣٢].

ثم وصف الله إبراهيم بقوله: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾** أي كان إبراهيم صبوراً على الأذى صفوحاً عن الجناية يقابلها بالإحسان والعطف كما أنه (أوّاهٌ) أي كثير التأوه من خوف الله، المتضرع إليه في الدعاء، وأصل التأوه قوله (آه) وهو أيضاً (منيب) أي كثير الرجوع إلى الله بالدعاء والاستغفار والعبادة.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي قالت الملائكة: يا إبراهيم دع عنك الجدال في قوم لوط وفي طلب إمهال عقوبتهم فقد جاء أمر ربك بإهلاكهم **﴿وإِنَّهم آتيهم عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾** وأنه نازل بهم عذاب غير مصروف عنهم لا يرده عنهم دعاء ولا جدال، بل هو واقع بهم لا محالة.

---

(١) عن تفسير التنوير والتحوير للطاهر بن عاشور.

(٢) الغابرين: الباقين في العذاب.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾

شرح المفردات

سيء بهم: ساءه مجيئهم خوفاً عليهم.

ضاق بهم ذرعاً: ضاق صدره بمجيئهم ولم يجد من ذلك المكروه خلاصاً.

يوم عصيب: يوم شديد شره، عظيم بلاؤه.

يهرعون: يسرعون ويتدافعون للوصول إلى بيت لوط.

ولا تخزونِ في ضيفي: ولا تفضحوني وتذلّوني في أضيافي.

رجل رشيد: رجل سديد الرأي.

آوي إلى ركن شديد: ألجأ وأنضوي إلى عشيرة قوية تمنعني منكم.

فـأسْرِ بأهلك: فسر ليلاً بأهلك.

بقطع من الليل: بجزء من الليل.

سجّيل: حجر وطين مختلط.

منضود: متتابع في النزول بعضه فوق بعض.

مسوّمة عند ربك: معلّمة بعلامات من عند ربك ومعدّة لإهلاك القوم الظالمين.

قصة لوط مع الملائكة وهلاك قومه

ترك الملائكة إبراهيم عليه السلام وتوجهوا إلى قرية سدوم وحلّوا ضيوفاً على لوط، وفي الآيات التالية يحكي لنا القرآن ما جرى من أحداث عندما علم قوم لوط بمجيء ضيوف حسان عنده:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ﴾ أي ولما جاء رسل الله من الملائكة إلى بيت لوط وحلوا ضيوفاً عنده ساءه مجيئهم ﴿وَضَاقَ بِهِم ذَرْعاً﴾ أي ضاق بهم صدره وضعفت طاقته عن احتمال وجودهم عنده ولم يجد خلاصاً من المكروه الذي حلّ به لأنهم جاءوه في صورة شباب من البشر، حسان الوجوه، فخشي من اعتداء قومه على ضيوفه بفعل فاحشة اللواط التي كانت شائعة بينهم ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ وقال لوط في نفسه: هذا يوم شديد هوله، عظيم كربه.

ثم يصف القرآن ما جرى لقوم لوط عندما علموا بمجيء هؤلاء الضيوف:

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي وجاء القوم المجرمون إلى بيت لوط مسرعين تدفعهم الشهوة الجامحة الشاذة في ضيوفه ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي ومن قبل مجيء هؤلاء الضيوف إلى بيت لوط كانوا يرتكبون السيئات الكثيرة التي من أقبحها إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء.

وبعدما رأى لوط من قومه ما رأى من تدافعهم نحو ضيوفه، عرض عليهم عرضاً كريماً بقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ[1] لَكُمْ﴾ والمراد بناته نساء القرية اللاتي يصلحن للزواج، وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقة

(١) تأمل كيف بيّن القرآن أن إتيان النساء أطهر لأن الاتصالات الجنسية غير الطبيعية عن طريق اللواط تسبب الإصابة بالتلوث بالجراثيم المَرَضية. ولفظ (أطهر) جاء ذكره في القرآن في معرض التطهر من الجراثيم في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]. والماء كما هو معروف من أدوات التطهر من الجراثيم.

وحسن التوجيه، والتزوج بهن هو أطهر وأشرف لهم. ومن العلماء من يرى أن المراد بناته هنا: بناته من صلبه وأنه عَرَضَ عليهم الزواج بهن عرض مجاملة. والرأي الأول أرجح لأن لوطاً كان له بنتان أو ثلاثة، وعدد الذين جاءوا إلى بيته كثير فكيف تكفيهم بنتان أو ثلاث للزواج؟ وتابع لوط قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي خافوا الله وصونوا أنفسكم من عقابه ولا تفضحوني وتهينوني بالاعتداء على ضيوفي ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أليس منكم رجل سديد الرأي رشيد العقل يفهم ما أنهاكم عنه ويرى فيه الصواب من الخطأ فيرعوي عما أنهاكم عنه؟

لم تؤثر كلمة لوط عليه السلام في قومه ولم تردعهم عن غيهم بل أجابوه: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي لقد علمت يا لوط أنه لا رغبة لنا في النساء ولا مطمع لنا فيهن عن طريق الزواج ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ وإنك لتعلم أننا نرغب بإتيان الرجال الذين نزلوا ضيوفاً عندك.

فردّ عليهم لوط بقوله: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي لو أن لي قوة تقف في وجهكم ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1] أو ألجأ إلى عشيرة أتقوّى بها عليكم وجواب (لو) محذوف تقديره: لردعتكم عن غيكم، وصنت ضيوفي من الاعتداء عليكم.

وبعد هذا الكرب العظيم الذي ألمّ بلوط كشف الملائكة عن حقيقة حالهم وقالوا: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أي إننا ملائكة أرسلنا الله لإهلاك قومك وتطهير الأرض من دنسهم، فلن يصل إليك هؤلاء المجرمون بضرر في نفسك ولا في ضيوفك ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي فاخرج مصحوباً بالمؤمنين من أهلك متخفياً بسواد الليل أو بظلمة من الليل ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي ولا يلتفت أحد منكم خلفه لكي لا يرى هول العذاب النازل بهؤلاء الأشرار

(١) وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري أن النبي ﷺ قال: «رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد» يريد أن الله ناصره ومؤيده فهو ركنه الشديد.

فيصاب بسوء، سواء في نظره، أو بما يصيبه من شدة الهلع والخوف ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي لكن امرأتك يا لوط التي خانتك لن تكون من الخارجين معك لأنه لا بد أن يصيبها من العذاب ما قدّر أن يصيب هؤلاء ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ أي أسرع بالسير بأهلك كي تبتعد عن مواقع العذاب الذي تحدد الصبح وقتاً لنزوله ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ أليس الصبح موعداً قريباً[1] لهلاكهم؟ فموعد عذابهم يبتدىء من طلوع الفجر وينتهي مع شروق الشمس، وقد جاء في القرآن في شأن قوم لوط: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣]. وكان الصبح وقتاً لهلاكهم لأنه وقت الراحة والهدوء فيكون نزول العذاب بهم أشد وقعاً.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي فلما جاء أمر الله وقضاؤه بنزول العذاب بقوم لوط جعل الله عالي قرى قوم لوط سافلها وقلَبها على هذه الهيئة ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ أي وأنزل الله عليها حجارة كالمطر، والسجيل هو الطين المتحجر، وقيل هو الشديد الصلب من الحجارة، ومعنى منضود: أي متتابع بعضه فوق بعض.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي لها علامة خاصة عند ربك لا تصيب غير هؤلاء القوم، ومعدّة إعداداً خاصاً لإهلاكهم ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي وليست تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر وبالشكل الذي أصابت القوم ببعيدة عن غيرهم، بل ستصيب كل ظالم يفعل فعلهم.

وما يصيب العالم من ويلات وكوارث لهو جزاء لمن يخرج عن طاعة الله وينغمس في الفواحش والمنكرات.

(١) حين قالت الملائكة: موعد هلاكهم الصبح استبطأ لوط ذلك وقال لهم: بل عجّلوا لهم الهلاك، فقالوا: أليس الصبح بقريب؟

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ (٨٧)﴾

شرح المفردات

المكيال: وعاء محدد يقاس به السوائل أو الحبوب عند الشراء والبيع.

عذاب يوم محيط: عذاب يوم يحيط بكم ويهلككم.

بالقسط: بالعدل.

ولا تبخسوا: ولا تنقصوا.

ولا تعثوا في الأرض: ولا تنشروا الفساد في الأرض.

بقية الله خير لكم: أي ما يبقيه الله لكم من الرزق الحلال بعد إيفاء حقوق الناس أكثر بركة.

شعيب يعظ قومه

شعيب هو أحد أربعة أنبياء عرب وهم: هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام. وقد روي عن شعيب أنه كان خطيب الأنبياء لفصاحته وقوة حجته.

وقوم شعيب هم أهل مدين وهي قرية تقع في أرض معان بين حدود الحجاز والشام، وهم عرب ينتسبون إلى مدْين بن إبراهيم عليه السلام.

وكان أهل مدْين لا يؤمنون بالله ويعبدون الأصنام، وكانوا أسوأ الناس معاملة ينقصون الكيل والميزان إذا باعوا، فبعث الله فيهم رسولاً منه إليهم وهو شعيب عليه السلام قال تعالى:

﴿وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ هذه الجملة معطوفة على ما قبلها من قصة صالح، أي وأرسلنا إلى أهل مدين أخاهم في النسب وهو شعيب ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ناداهم متحبباً إليهم بقوله: يا قومي، أي يا عشيرتي: اعبدوا الله وحده ليس لكم إلَه غيره فهو الذي خلقكم وهو الذي يرزقكم ﴿وَلاَ تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي لا تنقصوا المكيال والميزان لا عند الشراء ولا عند البيع، فلا تعطوا غيركم أقل من حقه إذا بعتم ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ إني أراكم في سعة من الرزق ونِعَم من الله فيجب أن تقابلوا هذه النعم بإعطاء الناس حقهم لا أن تسلبوهم بعض أموالهم دون حق وتفسدوا في الأرض ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ وإني أشفق عليكم وأخشى أن يحل بكم عذاب يوم يحيط بكم فيهلككم جميعاً، هذا في الدنيا، كما يكون العذاب في الآخرة حيث يقول سبحانه: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤].

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ كرر شعيب نداءه لهم بإيفاء الكيل والميزان للتأكيد عليهم بعدم الغش وقيده (بالقسط) أي بالعدل من غير زيادة ولا نقصان ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ فالبخس هو الظلم وأن ينقص الإنسان من حق غيره عليه كما يبخس الكيال مكياله فينقصه، والأشياء هنا تشمل الأنواع الحسية من معاملات الناس كافة التي تندرج تحت اسم المكاييل والأوزان أو أكل أموال الناس بالباطل والخداع، كما يشمل البخس الأشياء المعنوية من عدم احترام الناس وتقديرهم حسب فضلهم ومعطياتهم الخيرة وتضحياتهم للمجتمع ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ والعُثُوّ في اللغة أشد الفساد والمراد النهي عن كل أنواع الفساد في الأرض ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ أي ما يبقيه الله لكم من المال الحلال بعد إيفاء حقوق الناس بالعدل هو خير لكم من المال الكثير الذي تجمعونه من الحرام بشرط أن تؤمنوا بالله وتتبعوا ما أرسلني الله به ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ وما أنا عليكم برقيب فأجازيكم بأعمالكم.

ولكن القوم المفسدين قالوا لشعيب على سبيل الإنكار:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي هل صلاتك يا شعيب هي التي تأمرك أن تحملنا على ترك ما كان يعبد آباؤنا من الأصنام، قالوا له ذلك لأنه كان كثير الصلاة ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ أو تأمرك أن نترك ما تعودنا فعله في أموالنا من التطفيف في الكيل والميزان. هذا الجواب منهم هو شأن المتكبرين الذين يرفضون اتباع الحق ولا يجدون حجة لتبرير سلوكهم السيىء سوى التمسك بما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم. ثم قالوا لشعيب على سبيل السخرية والاستهزاء: ﴿إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أي إنك ذلك الرجل المشهور بيننا بالحلم والعقل والتروي وسداد الرأي، فما تأمرنا يدل على عكس ذلك من الجهالة والسفه والعجلة في الأحكام.

لقد لاحظ قوم شعيب تأثير الصلاة على شعيب وأتباعه كيف أنها غيرت أوضاعهم وأدت بهم إلى التحرر من عبادة غير الله وترك الغش في معاملاتهم فكان أن تهكموا عليه بهذا القول. والحقيقة أن الصلاة تغير الأنفس لأنها تهدف إلى عبادة الله وحده وصنع ضمير نقي في الإنسان فتحرك فيه مشاعر التقوى ومحاسبة النفس وتذكّره دائماً بيوم الحساب، كما أنها تعصم من الخطايا وتنهى عن الفحشاء والمنكر بما تشعرهم بأن الله رقيب عليهم.



﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) ﴾

شرح المفردات

أرأيتم: أخبروني.

بينة: البينة هي الحجة الواضحة وما يتبين به الحق من الباطل.

وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه: وما أريد أن أنهاكم عن أمر ثم أفعله.

لا يَجْرِمنَّكُم: لا يُكسبنكم. أصل الفعل جرم أي كسب والنون للتوكيد.

شقاقي: والشقاق، مصدر شاقه إذا عاداه.

ودود: من أفعال المبالغة أي كثير الود للمؤمنين.

شعيب يحذّر قومه من غضب الله

وبعد هذا الرفض الذي لاقاه شعيب من قومه شرع يبين لهم الغاية من نصحه إياهم ممهداً بذلك إلى إنذارهم بما سيصيبهم من عذاب:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُم إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبّي﴾ قال شعيب: يا قومي وعشيرتي أخبروني إن كنت على حجة واضحة منحني إياها ربي أميز بها الهدى من الضلال **﴿وَرَزَقَني مِنْه رِزقاً حَسَناً﴾** وأعطاني ربي الخير من النبوة والحكمة والمال الحلال الوفير **﴿وَمَا أُرِيدُ أن أُخَالِفَكُمْ إلى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾** ولا أريد أن أفعل ما نهيتكم عنه بأن آمركم بشيء ثم لا أفعله، أو أنهاكم عنه ثم أفعله.

فما جرى على لسان شعيب بأن قوله يطابق فعله هو درس للوعاظ والمصلحين للنجاح في مهمتهم، إذ مهما صدر منهم من خطب ووعظ وإرشادات فلن يكون لها الأثر في نفوس مستمعيها إذا لم يكونوا هم أول العاملين بمضمونها، وعلى هذا المنهج السديد سار شعيب فكان لا ينطق بموعظة إلا وكان سلوكه يماثل قوله، لأن سلوك الإنسان هو المعيار الصحيح لصدقه أو كذبه أو نفاقه.

ورغبة شعيب في الإصلاح هي رغبة خالصة لوجه الله، بعيدة عن أي غرض مادي أو منفعة ذاتية وهذا ما أعلنه لقومه **﴿إِنْ أُرِيدُ إلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتطعْتُ﴾** أي وما أريد بما أنصحكم به إلا إصلاحكم وسعادتكم ما دمت أستطيع ذلك وأقدر عليه. فالإصلاح المجرد من أي غرض هو الذي يكتب له في النهاية النجاح والفوز لأن ذلك هو رسالة الحق، والحق دائماً هو المنتصر لأنه صادر عن الله سبحانه. ثم تابع شعيب قوله: **﴿وَمَا تَوفِيقي إلاّ باللَّه عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾** أي وما توفيقي في إصابة الحق ودعوتكم إلى الخير ونهيكم عن الشر إلا بمعونة الله وتأييده، عليه وحده أعتمد في كل شؤوني، وإليه وحده أرجع في كل أموري.

﴿ويَا قوم لا يَجْرِمَنّكُمْ شِقَاقي﴾ أي لا تحملنكم، أو تكسبنكم، عداوتي على التمادي في عصياني ومحاربتي والإصرار على الكفر بالله **﴿أن يُصيبَكم مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أو قَوْمَ هُودٍ أو قَوْم صَالحٍ﴾** أن يصيبكم العذاب كما أصاب قوم نوح بالغرق، وقوم هود أصابتهم الريح المدمرة المهلكة، وقوم صالح أصابتهم الصيحة فأهلكتهم **﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُم بِبَعِيدٍ﴾** وديار قوم لوط قريبة من دياركم، والزمن الذي أهلك فيه قوم لوط ليس ببعيد عنكم، فاتعظوا يا قومي بما أصاب قوم لوط من عذاب وهلاك حيث جعل الله أعلى مساكنهم أسفلها.

ثم فتح شعيب لقومه باب الرجاء في رحمة الله حيث قال لهم: **﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثم تُوبوا إِلَيْهِ إنَّ رَبّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾** أي اطلبوا المغفرة من ربكم لما صدر منكم من ذنوب، ثم ارجعوا إليه بالإيمان والطاعة والندم على ما اقترفتم من ذنوب إن ربي واسع الرحمة، كثير المحبة لمن تاب إليه، ورجع عن ذنوبه وأطاعه في أمره ونهيه.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾

شرح المفردات

ما نفقه: ما نفهم.

رهطك: جماعتك وعشيرتك.

لرجمناك: لقتلناك رمياً بالحجارة.

بعزيز: بصاحب قوة ومنعة.

واتخذتموه وراءكم ظِهْرِيًّا: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم غير ملتفتين إليه.

محيط: عالم بكل شيء.

اعملوا على مكانتكم: اعملوا على غاية تمكّنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم.

ارتقبوا: انتظروا العاقبة والمآل.

جاثمين: هامدين ميتين لا يتحركون.

كأن لم يغنوا فيها: كأن لم يقيموا فيها طويلاً في رغد.

بعداً: هلاكاً لهم.

هلاك الكافرين من قوم شعيب

وبعد أن وعظ شعيب قومه بما فيه خيرهم قابلوا وعظه بالإعراض فقالوا له:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾ ما نفقه: أي ما نفهم. ليس المراد من قولهم هذا عدم فهمهم كثيراً مما يقوله شعيب، ولكنهم قصدوا الاستهانة به ورفض ما يلقيه على أسماعهم من حجج واضحة تدل على صحة نبوته وفساد سلوكهم، هذا مع العلم بأن شعيباً كان فصيح الكلام وكان يلقّب بخطيب الأنبياء.

وتابع القوم قولهم لشعيب: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي وأنت في نظرنا يا شعيب ضعيف بيننا ولا قدرة لك على مقاومتنا، ولولا مجاملتنا لعشيرتك وأهلك الذين هم على ملتنا لقتلناك رجماً بالحجارة ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ولست بيننا قويًّا منيعاً، ولا تستطيع أن تدفع ما نريده بك من أذى إن أردنا ذلك، أو تحول بيننا وبين قتلك.

فقال شعيب ردًّا على هذا التهديد والوعيد: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِنَ اللَّهِ﴾ هنا استفهام إنكاري، والمعنى: أعشيرتي أعزّ وأكرم عليكم من الله الذي أدعوكم إلى عبادته وطاعته ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُم ظِهْرِيًّا﴾ أي وجعلتم أوامر الله ونواهيه شيئاً منبوذاً وراء ظهوركم لعدم الاعتداد بها بسبب كفركم وطغيانكم ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ إن ربي محيط علمه بجميع أعمالكم وسيجازيكم عليها.

وتابع شعيب قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي اعملوا على طريقتكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ إني عامل على طريقتي في ما أمرني الله به ﴿سَوْفَ تَعْلَمُون مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيه وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أي سوف تعلمون عن قريب من منا سيصيبه عذاب من الله يذلّه ويهينه ومن هو كاذب ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُم رَقِيبٌ﴾ وانتظروا عاقبة تكذيبكم إياي إني معكم منتظر ما سيفعله الله بكم، وفي هذا القول إظهار لثقة شعيب بربه واليقين بنصرته له.

لم يتأخر وقوع العذاب بقوم شعيب بل جاء سريعاً، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ

﴿أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعيباً وَالَّذِين آمنوا مَعَهُ بِرَحْمة مِنّا﴾ أي وحين جاء أمر الله بعذابهم وهلاكهم نجى الله النبي شعيباً والذين آمنوا معه من الهلاك الذي حل بقومهم برحمة منه بهم ﴿وأَخَذَتِ الّذين ظَلَمُوا الصَّيْحَة﴾ وعوقب هؤلاء الظالمون بالصيحة المُهْلِكة حيث صاح بهم الملك جبريل صيحة شديدة ﴿فَأَصْبَحُوا في دِيَارِهِم جَاثِمِينَ﴾ فأصبحوا من شدتها وتأثيرها صرعى في مساكنهم، لا حراك بهم ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كأن هؤلاء لم يقيموا في تلك الديار من قبل ذلك ويعيشوا فيها برخاء وأمان ﴿ألا بُعداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدت ثَمُودُ﴾ ألا هلاكاً لمدين وبُعداً لهم من رحمة الله كما هلكت من قبلهم ثمود، وقد شبه الله هلاك مدين بهلاك ثمود لأن هلاك كليهما كان بالصيحة.

وهكذا نزل العذاب بقوم شعيب وحل بهم الهلاك بسبب نقصهم الكيل والميزان وبخسهم الناس أشياءهم، وبسبب أنهم كانوا من المفسدين في الأرض، وسيحل الهلاك بكل قوم يفعلون فعلهم، وسُنّة الله في خلقه لا تتغير.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ (٩٩)﴾

شرح المفردات

بآياتنا: بمعجزاتنا.

سلطان مبين: حجة بليغة على صدق نبوته.

برشيد: بسديد الرأي.

يَقْدُمُ قومه: يتقدمهم ويقودهم إلى النار.

بئس الورد المورود: ساء المدخل المدخول فيه وهو النار.

بئس الرفد المرفود: أي ساء العطاء المعطى لهم وهو اللعنة المضاعفة.

مصير فرعون في الآخرة

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام على موسى وفرعون بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ[1] مُبِينٍ﴾ أي ولقد أرسل الله موسى بالشرائع الإلهية وأيده بالمعجزات الباهرة والحجج الظاهرة.

والمعجزات التي أيد الله بها موسى عليه السلام هي: العصا التي انقلبت إلى ثعبان، واليد البيضاء، والسنون العجاف، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي أرسل الله موسى إلى فرعون وأشراف قومه وأتباعه، وخصّهم القرآن بالذكر لأنهم كانوا يعاونون فرعون على فساده في الأرض، كما أنهم انقادوا لأمر فرعون وأطاعوه في تكذيب موسى ورفض ما جاءهم به من عند الله ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وما أمرَ فرعون قومه به من إنكار وحدانية الله وتكذيب موسى ليس بالرأي السديد. وتكرار لفظ فرعون للتشهير به وذمه.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي يتقدم قومه يوم القيامة فيتبعونه كما كانوا يتبعونه في الدنيا فيدخل جهنم ويدخلهم معه فيها ليعذَّبوا بنارها، وأصل الوِرد لغة: الماء الذي يرده الناس، أي يقصدونه لإرواء عطشهم، بينما النار تحرقهم وتذيقهم أشد العذاب. وشتان بين النار التي تحرق والماء الذي يروي العطش ولذا عقّب القرآن على ذلك بقوله: ﴿وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ﴾ وبئس: كلمة ذم أي بئس الدخول الذي يدخلونه في نار جهنم.

﴿وأُتْبِعُوا في هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ﴾ أي أُلحقت بهم لعنة الله وجُعلت تابعة لهم في هذه الدنيا ويوم القيامة، واللعنة من الله هي الطرد من رحمته ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ

---

(١) سلطان: سميت الحجة سلطاناً لأن بها قهر الخصم كما أن السلطان يقهر غيره.

المرْفُودُ﴾ والرفد هو العطاء، أي بئس العطاء المعطى لهم وهو الطرد من رحمة الله، وسمّيت اللعنة رفداً على سبيل التهكم بهم لأن العطاء يكون لشيء يُنتفع به أمّا ما يعطى لهم فهو العذاب الأليم في نار جهنم.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

شرح المفردات

قائم: أي باقية آثارها بعد هلاك الظالمين.

حصيد: خراب انمحى أثره كالزرع المحصود الذي استؤصل بقطعه.

فما أغنت: فما نفعت.

غير تتبيب: غير تخسير وإهلاك.

أَخْذُ: الأخذ هو العقاب المباغت السريع.

أخذ القرى: عاقبها وأهلكها.

مشهود: يشهده الخلائق جميعاً.

لأجل معدود: لانقضاء مدة قليلة قضاها الله حسب حكمته.

زفير: هو الهواء الخارج من الصدر عبر الفم من شدة الحزن.

شهيق: هو الهواء الداخل إلى الصدر عبر الأنف من شدة كربهم.

غير مجذوذ: غير مقطوع عنهم.

التحذير من الظلم وعواقبه الوخيمة

بعد أن ذكر الله في هذه السورة ما حل بقوم نوح، وعاد وثمود، وقوم لوط وشعيب وفرعون وقومه من عذاب وهلاك بسبب كفرهم وظلمهم عقّب القرآن على ذلك بقوله:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ القُرَى نَقُصُّه عَلَيْكَ﴾ أي ذلك الذي مر ذكره هو جزء من أخبار القرى التي أهلكناها نقصّه عليك يا محمد عبرة وعظة لمن يتعظ **﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾** أي من هذه القرى التي أهلكها الله ما آثارها قائمة يراها الناظر إليها كآثار قوم ثمود، كما أن من هذه القرى التي حل بها العذاب ما اندثرت آثارها وزالت، وقد شبهها الله بالزرع المحصود الذي استؤصل بقطعه من أصوله كديار قوم نوح وعاد.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُم وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم﴾ أي وما ظلم الله أهل هذه القرى المهلكة ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله وعبادة الأصنام والإفساد في الأرض واقتراف المعاصي **﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُم آلِهَتُهُمُ التي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ من شيء﴾** فما نفعتهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها من غير الله ولا دفعت عذاب الله عنهم **﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾** أي حين جاء قضاء الله بإهلاكهم **﴿وَمَا زَادُوهم غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾** أي وما زادتهم تلك الآلهة غير خسران وتدمير وإهلاك.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إذا أَخذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي ومثل ذلك العقاب الذي مرّ ذكره يهلك الله أهل القرى في حال تلبُّسها بالظلم **﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾** إن عقاب

الله للأمم الظالمة شديد الإيلام. وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قوله: إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته[١] ثم قرأ قوله تعالى: **﴿وكذلك أخذُ ربك إذا أخذَ القرى... الآية﴾** فالنبي ﷺ يقول إن الله يؤخر عقوبة الظالم ويمهله ليزداد إثماً حتى إذا أخذه الله بالعذاب لا يخلصه من الله شيء.

وأصل الظلم الجوْر ومجاوزة الحد والتعدي على حدود الله جاء، في القرآن: **﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾** [البقرة: ٢٢٩]. وحدود الله هي أحكامه وشرائعه، وتعدّيها مجاوزتها ومخالفتها، كما أن من الظلم العظيم الكفر بالله والشرك به. جاء في القرآن: **﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾** [لقمان: ١٣].

كما يشمل الظلم الاعتداء على الأنفس والأعراض والأموال والحقوق العامة والخاصة فإذا اعتدى أحد على غيره في نفسه أو ماله أو عرضه أو سلبه حقًّا من حقوقه فقد ظلمه **﴿إنّ في ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾** أي إن في ما قصّه القرآن من إهلاك الأمم الظالمة لعظة وعبرة للذين يخافون عذاب يوم القيامة **﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾** ذلك اليوم الذي يجمع الله فيه الناس لمحاسبتهم وجزائهم على أعمالهم **﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾** أي يشهده الأولون والآخرون وأهل السماء والأرض لا يغيب عنه أحد **﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إلاّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾** أي وما يؤخر الله هذا اليوم الذي يجمع فيه الناس إلاّ لوقت محدد ومدة معدودة وهو انقضاء عمر الدنيا ومجيء يوم القيامة.

﴿يَوْمَ يأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاّ بِإِذْنِهِ﴾ أي حين يأتي يوم القيامة لا تتكلم فيه نفس بأي كلام إلا بإذن الله تعالى، ويكون الناس في ذلك اليوم منقسمين إلى قسمين **﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وسَعِيدٌ﴾** أي فمنهم شقيٌّ بما يعاني من ألوان الشدة وما يقاسي من

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

العذاب، ومنهم سعيد بما ينتظره من نعيم الآخرة بسبب إيمانه بالله وعمله الصالح.

﴿فأمّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ أي فأما الذين قُضي عليهم بالشقاء بسبب كفرهم واقترافهم المعاصي فمصيرهم الاستقرار في النار ليعذبوا بها **﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾** الزفير والشهيق صوتان يخرجان من الصدر عند شدة الكرب، فالزفير إخراج النفس من الصدر بمشقة، والشهيق ردّ النفس إلى الصدر بصعوبة وعناء، والمراد بهما تلاحق أنفاس الأشقياء في النار من شدة العذاب وشدة الكرب.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ والأَرْضُ﴾ أي ماكثين في النار مكث بقاء وخلود لا يبرحونها مدة دوام السماوات والأرض، والمقصود بهذا التعبير الخلود في النار، فإن العرب تستعمل هذا التعبير بمعنى دائماً أبداً، فخاطبهم الله سبحانه بما يتعارفون، ويجوز أن يراد بهذا التعبير سماوات الآخرة وأرضها وهي دائمة أبداً **﴿إلاّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾** أي إن دوام عذابهم في جهنم ليس أمراً واجباً بذاته بل إن ذلك موكول إلى مشيئة الله. وقد يكون الاستثناء هنا خاصّاً بالعصاة من المؤمنين فإنهم يخرجون بعد مدة من النار **﴿إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾** إن ربك يا محمد فعّال لما يريد فعله لا يمنعه أحد عنه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خَالِدِين فيها مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ وأما الذين رزقهم الله السعادة في الآخرة فيدخلون الجنة خالدين فيها لا يبرحونها أبداً **﴿إلاّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾** إلاّ في الوقت الذي يشاء الله أن ينعموا بثواب أعظم **﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾** عطاء غير منقوص ولا مقطوع.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

شرح المفردات

مرية: شك وريبة.

لموفوهم أجورهم: لمعطوهم جزاء أعمالهم كاملاً غير منقوص.

ولولا كلمة سبقت من ربك: ولولا قضاء الله بتأخير العذاب عليهم إلى يوم القيامة.

مريب: موقع في الريبة والقلق والاضطراب.

ولا تركنوا: ولا تميلوا، يقال ركن إلى الشيء إذا مال إليه واطمأن به.

أولياء: نصراء.

مجازاة الناس على أعمالهم ودعوة للاستقامة

ويتابع القرآن فيخبرنا بأن الله تعالى سيجازي الكافرين يوم القيامة على ما سبق من ضلالهم:

﴿فلا تَكُ في مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ﴾ أي فلا تكن يا محمد في شك من أن عبادة قومك للأصنام ضلال، وأن مصيرهم كمصير من سبقهم من الكفار إلى الهلاك في الدنيا وعذاب النار في الآخرة **﴿مَا يَعْبُدونَ إلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آباؤهم مِنْ قَبْلُ﴾** وعبادتهم للأصنام قائمة على تقليد الآباء تقليداً أعمى بدون رويّة ولا فكر، وهذا شأن بعض المجتمعات البشرية في عصرنا الحاضر **﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُم غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾**

وإن الله لَمُعطيهم نصيبهم من العذاب في الآخرة جزاء وافياً غير منقوص حسب جرائمهم.

ثم تنتقل بنا الآيات إلى مواساة رسول الله ﷺ بسبب ما يلاقيه من إعراض واختلاف حول الوحي الذي أنزله الله عليه، وأن هذا الاختلاف حصل من قبل حول التوراة، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي ولقد أعطى الله موسى التوراة فاختلف بنو إسرائيل في شأنها بين مصدق ومكذب فاتبعها بعضهم وكفر بها آخرون **﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾** أي ولولا قضاء سبق من ربك بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة **﴿لَقُضِيَ بينهم﴾** أي لقضى الله بينهم في الدنيا بإهلاك العصاة وإنجاء المؤمنين **﴿وَإنهم لَفي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾** وإن اليهود والنصارى الذين ورثوا التوراة لفي شك مقلق من صحة بعضها بسبب طول الزمن واختلاف الشروحات حولها وانقطاع سندها عن طريق التواتر عن موسى عليه السلام **﴿وَإِنَّ كُلاًّ لمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾** أي وإنّ كُلاًّ من المختلفين حول كتب الله من مصدّقين بها ومكذّبين سيجزيهم ربك يا محمد جميعاً على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شرًّا فشرّ **﴿إِنَّه بِمَا يَعْمَلُون خَبِيرٌ﴾** إن الله عالم بأعمالهم لا يخفى عليه شيء.

ثم يخاطب الله رسوله محمداً بقوله: **﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾** أي فداوم على ما أنت عليه من الاستقامة على شرع الله الذي أنزله عليك وليستقم معك من تاب من قومك عن الشرك بالله وآمن برسالتك والتزم هديك **﴿وَلا تَطْغَوْا﴾** والطغيان مجاوزة الحد، أي الزموا الاستقامة دون تفريط واحذروا أن تتجاوزوا حد الاعتدال في الأوامر والنواهي، ولا ترتكبوا المعاصي **﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** إن الله بصير بأعمالكم ومجازيكم عليها.

وكلمة الاستقامة كلمة جامعة لكل ما أمر الله به من عقائد وعبادات ومحاسن الأعمال والأخلاق، كما أن الطغيان هو مجاوزة الحد في العصيان، أو المغالاة في الكفر والبغي.

هذه الآية كانت نبراساً لرسول الله ﷺ فقد جاء أحد الصحابة إليه وقال: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال رسول الله ﷺ: «قل آمنت بالله ثم استقم»[1].

وفي معنى الاستقامة أقوال صدرت عن بعض العلماء منها:

- الاستقامة هي أن يجتهد العبد في إصلاح باطنه ليصلح ظاهره.
- من استقام بالحق لا يعوجّ ومن استقام بباطل فهو غير مستقيم لأن الاستقامة لا تكون إلا بالحقيقة.
- الاستقامة لا تكون إلا باتباع السنّة.
- استقِم عند المحنة بالصبر والرضا، وعند النعمة بالشكر والثناء.

ويتابع القرآن فيخاطب المؤمنين: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ والركون هو الميل إلى الشيء والسكون إليه والاطمئنان به والاعتماد عليه ونقيضه النفور منه. والركون إلى الظالمين المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظالمون من الظلم وتحسين ما هم عليه، ومشاركتهم في شيء من ظلمهم، ومجالستهم ومؤانستهم ونصرهم، أما صحبة الظالم لاتقاء شره فهي مستثناة من النهي ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي فتصيبكم النار بسبب ميلكم إلى الظالمين ﴿وَمَا لَكُم مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ أي والحال أنه ليس لكم غير الله نصراء لإنقاذكم من النار ثم إنكم لن تجدوا من ينصركم إذ جرى حكمه سبحانه بأن يعذبكم بسبب ركونكم إليهم.

وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض فلعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»[2].

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

شرح المفردات

طَرَفَي النهار: أوله وآخره وهما الغداة والعشيّ.

زُلفاً من الليل: ساعات من الليل.

يُذهبن السيئات: أي يكفرنها حتى كأنها لم تكن، أي يُمحى إثمها ولا يُعاقب عليها.

ذِكرى للذاكرين: عظة للمتعظين.

من القرون: من الأمم الماضية.

أولو بقيّة: أصحاب عقل وفضل.

ما أُترفوا فيه: ما نُعّموا فيه من الملذات والشهوات.

الحسنات تمحو السيئات

وبعد أن دعا القرآن إلى الاستقامة أتبع ذلك بالدعوة إلى أداء الصلاة لأن الصلاة تساعد على الاستقامة بما فيها من الاتصال بالله ومناجاته، ومن يتصل بالله يردعه إيمانه عن اقتراف السيئات، قال تعالى:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي أدِّ الصلاة المفروضة طرفي النهار أي الغداة والعشيّ. وصلاة الغداة هي صلاة الصبح، وصلاة العشيّ - أي من زوال الشمس إلى غروبها - تشمل صلاتي الظهر والعصر ﴿وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي أول

ساعات الليل التي تشمل صلاة المغرب وصلاة العشاء ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي إن الحسنات التي تشمل الصلاة والزكاة والصيام والحج، والاستغفار، وذكر الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تمحو إثم السيئات. والمراد بالسيئات صغائر الذنوب، أما كبائر الذنوب فلا تكفّرها ـ أي تمحو إثمها ـ إلا التوبة الصادقة من الامتناع عنها والندم عليها والعزم على عدم العودة إليها ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ أي ذلك عظة للمتعظين وإرشاد للمسترشدين.

وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه[١] شيء؟ قالوا: لا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا»[٢].

وجاء في الحديث الشريف: «إن رجلاً أصاب من امرأة قبلة حراماً فأتى النبي ﷺ فسأله عن كفّارتها فأنزل الله ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار...﴾ إلى آخر الآية. فقال الرجل أَلِيَ هذه يا رسول الله؟ قال: لك ولمن عَمِلَ بها من أمتي»[٣].

هذه الآية التي مرّ ذكرها تجعل المسلم في رقابة ذاتية على أفعاله كما تكون حافزاً للامتناع عن السيئات، وفي الوقت نفسه تخلّصه من عقدة الذنب وآثارها المدمّرة على نفسه لأن المسلم إذا علم أن الحسنات يذهبن السيئات أصبح له أمل في رحمة الله وعفوه وغفرانه بما هُدي به إلى السبيل القويم الذي يجب أن يبنى عليه سلوكه وهو فعل الحسنات.

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ واصبر يا محمد على ما تلقاه من الأذى من قومك وعلى ما تلاقيه من مشقة في تبليغهم رسالة الله إليهم، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

---

(١) درنه: وسخه.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه البخاري.

ثم يبين الله عاقبة الأمم السابقة التي انجرفت نحو الفساد:

﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُم أُولوا بَقِيَّةٍ﴾ أي فهلّا كان من الأمم قبلكم جماعة من أهل الخير يتحلون بطاعة الله، والخصال الكريمة، والعقول السليمة ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾ أي ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات، والآية هنا للتقريع والتوبيخ، أي أن أكثرهم لم يكن فيهم جماعة خيّرة تنهى عن الفساد في الأرض ﴿إلا قليلاً مِمّن أنجَينا مِنْهُم﴾ أي لكنّ قليلاً ممن آمن من الأمم الماضية ـ وهم أتباع الأنبياء ـ كانوا ينهون عن الفساد فأنجاهم الله بسبب ذلك. وفي الآية توبيخ لكل من يتقاعس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويرتمي في أحضان الفساد ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي واتبع الظالمون المترفون من كل أمة لذّات الدنيا وشهواتها فاستكبروا عن أمر الله وتجبروا على عباد الله، وكانوا مجرمين بكفرهم بالله والإضرار بالناس.

ولقد وصف الله المترفين بصفتي الظلم والإجرام لما يسببونه من أخطار لمجتمعهم، فما يصيب الأمة من أزمات اجتماعية خانقة وفقر مدقع ما هو إلا بسبب ترف المترفين الذين يستأثرون بخيرات الأمة في سبيل إشباع ملذاتهم وإرضاء شهواتهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرى بِظُلْمٍ وأهلُها مُصلحون﴾ أي وما كان شأن ربك وسنته في خلقه أن يهلك الأمم بظلم منه في حال أن يكون أهلها مصلحين في الأرض متجنبين الفساد والظلم، وإنما يهلكهم بسبب ظلمهم وفسادهم.



﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

شرح المفردات

أمة واحدة: أي على ملة واحدة وهي ملة الإسلام.

وتمت كلمة ربك: وجب وثبت حكمه وقضاؤه الأزلي.

الجِنّة: أي عالم الجنّ وهو غير مرئيّ.

ما نثبّت به فؤادك: ما نقوّي به قلبك.

وذكرى للمؤمنين: وموعظة للمؤمنين.

اعملوا على مكانتكم: أي على حالتكم التي أنتم عليها وهي الكفر، والأمر للتهديد.

سنّة اللّه في خلقه والعبرة من أنباء الرسل

ويتابع القرآن فيقدّم لأتباعه هذا التوجيه الرباني السامي الذي يجنبهم الكثير من العثرات مع من يخالفهم في دينهم ومعتقدهم:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي ولو شاء ربك لجعل الناس مجتمعين على الحق ودين الإسلام بحيث لا يختلف فيه أحد ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متفقين على الحق **﴿ولايَزالُون مُخْتَلفين﴾** وسيظل الناس مختلفين في

عقائدهم، بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل **﴿إلاّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾** إلاّ قوماً رحمهم الله فهداهم إلى الحق فاتبعوه **﴿وَلِـذَلِـكَ خَـلَـقَـهُـمْ﴾** أي خلقهم الله فريقين: فريقاً يرحمهم فلا يختلفون، وفريقاً يتخلى عنهم فيختلفون.

هذه الآية ينبثق منها التسامح الديني، وحرية المعتقد، لأن اختلاف الناس في معتقداتهم هو من سنن الله في خلقه **﴿وَتَـمَّتْ كَلِـمَـةُ رَبِّـكَ لأَمْلأَنَّ جَهنَّم مِنَ الجِنَّـةِ وَالـنَّـاسِ أَجْمَعين﴾** أي تمّ أمر الله ونفذ قضاؤه وحكمه الأزلي بأن يملأ جهنم من الكفار وعصاة الجن والناس أجمعين، وهم أتباع إبليس لقوله تعالى: **﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** [ص: ٨٥].

ثم يبين الله الغاية من قصص الأنبياء **﴿وَكُـلاًّ نَـقُصُّ عَلَـيْـكَ مِن أَنْبَـاءِ الـرُّسُـلِ مَا نُـثَـبِّـتُ به فُـؤَادَكَ﴾** أي وكل خبر من أخبار هؤلاء الرسل السابقين مع أممهم نقصّه عليك يا محمد بما نقوّي به قلبك، لتدرك أنك لست وحدك الرسول الذي كفر به قومه واضطهدوه، فكل رسل الله جرى لهم ما جرى لك حتى جاءهم نصر الله **﴿وَجَاءَكَ في هَـذِهِ الحَقُّ وَمَـوْعِظَـةٌ وَذِكْرَى لِلمؤمنين﴾** أي وجاءك في هذه القصص من أخبار رسل الله الحق الثابت المطابق للواقع وما حل بأقوامهم الكافرين من هلاك بما فيه الذكرى النافعة للمؤمنين، والعظات البليغة لهم ليزدادوا إيماناً على إيمانهم.

﴿وَقل لِـلّذين لا يُـؤْمِـنُـونَ أعْـمَلُوا عَـلَى مَـكَانَـتِـكُمْ إِنَّـا عَامِلُونَ﴾ وقل يا محمد للمشركين الذين أعرضوا عن دعوتك بعبادة الله وحده وترك المعاصي، قل لهم مهدِّداً: ابذلوا أقصى ما في قدرتكم واستطاعتكم للوقوف في وجه الإسلام وإيذاء المؤمنين فإننا في موقف الثبات على ديننا أنا ومن اتبعني من المؤمنين **﴿وَانْـتَـظِـرُوا إِنَّـا مُـنْـتَـظِرونَ﴾** وترقّبوا ما تتمنّونَـه من فشل لدعوة الإسلام، إنني ومن معي من المؤمنين منتظرون ما وعدَنا ربنا من النصر وظهور هذا الدين على الدين كله وإعلاء كلمة الله. هذا الوعد الربّـاني بالنصر تحقق بعد سنوات قليلة مما يشهد بأن القرآن وحي إلَهي.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوات وَالأَرْضِ﴾ أي ولله وحده علم ما غاب عن علم الإنسان في السموات والأرض فلا يخفى عليه شيء من سركم أيها الناس وجهركم ﴿وإِلَيْه يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ من إحياء وإماتة ونصر وخذلان وهداية وضلال ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّل عَلَيْهِ﴾ فاعبده وحده وأخلص له العبادة وفوّض أمرك إليه واعتمِد عليه في كل أحوالك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وما ربك بغافل عما تعملون جميعاً أيها المؤمنون والكافرون وسيجازي كلاً بما يستحقه في الدنيا والآخرة، وإذا عَلِمَ الإنسان حقيقة علم الله بأحوال الناس كان ذلك حافزاً له لتجنب الشر والسير في طريق الخير.

من المراجع

تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي

تفسير المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي

تفسير التحوير والتنوير للطاهر بن عاشور

جامع البيان من تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم لمحمود الألوسي

تفسير الشعراوي للشيخ محمد متولي الشعراوي

صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف

فتح القدير للشوكاني

تفسير الكشاف للزمخشري

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي

التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي

تفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي

المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية مصر

تفسير الماوردي لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي البصري

وفي الختام

أقدم شكري وامتناني لأصحاب **دار العلم للملايين** الأجلاء على ما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص.

كما أقدم شكري للصديق فضيلة الأستاذ **الشيخ محمد شريف سكر** على تفضله بمراجعة هذا التفسير.

كما أقدم شكري إلى الأديبة **د. هدى سنو** على جهودها الطيبة في تصحيح هذا التفسير عند الطبع.

كما أخص بالشكر الصديق الحميم الأستاذ **شفيق اللبان** لما قدم لي من معونه وبعض الملاحظات القيمة.

وأخص بالشكر أيضاً الأستاذ **توفيق الحوري** عميد كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية على ما يسر لي من المراجع القيمة في مكتبتها هذه.

وأخيرا أشكر **جامعة بيروت العربية** لما قدمته لي مكتبة كلية الآداب فيها من مراجع علمية وخدمات جلّى على يد موظفيها الكرام.

سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه
وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم

عفيف عبد الفتاح طبارة

الفهرس

سورة يونس ٦

سورة هود ٨٨

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي باللغة الإنكليزية

روح القرآن

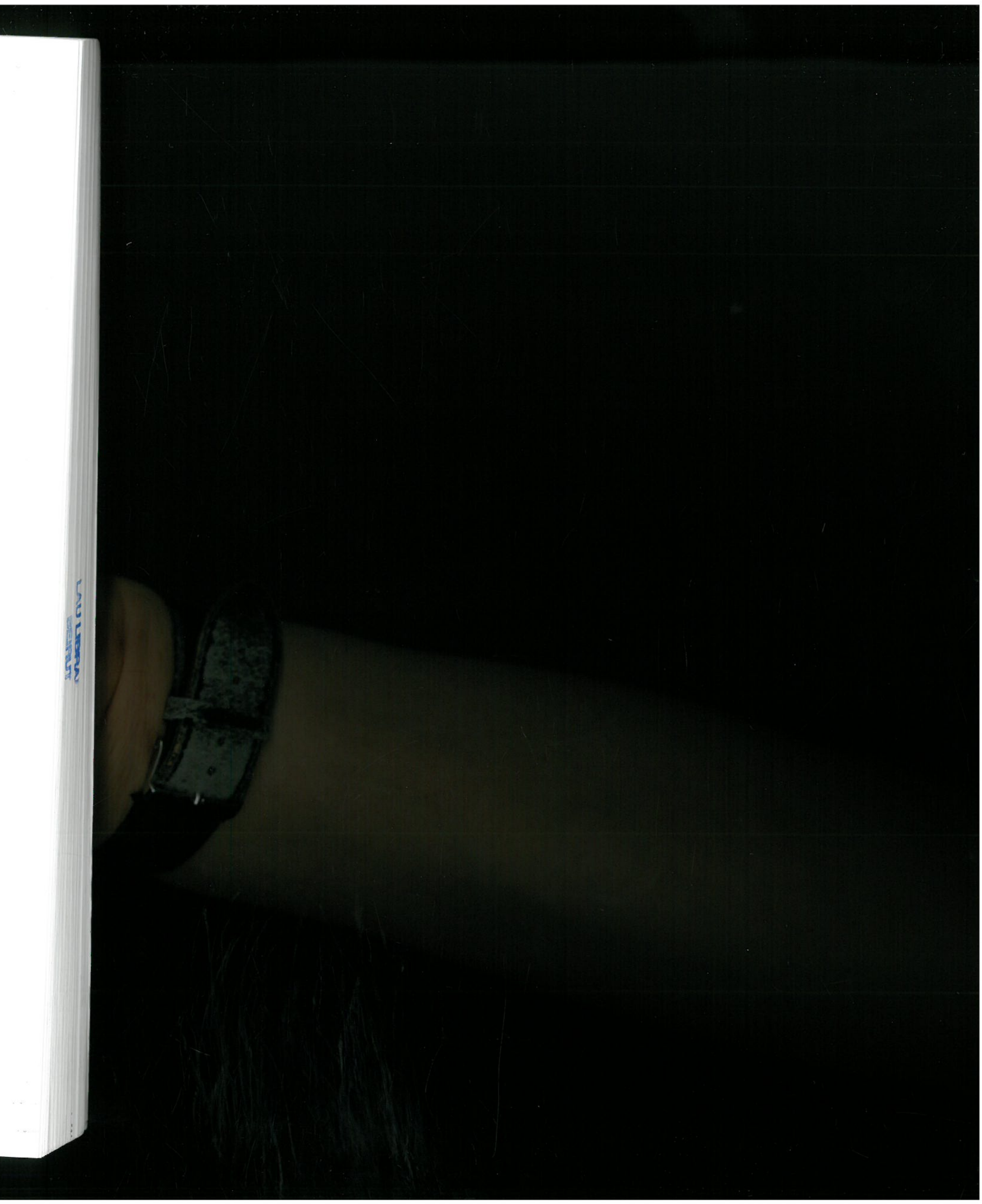
صدر منه حتى الآن

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يٓس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف ـ مريم ـ طٰه
- تفسير سُوَر: الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر: يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم

طباعة الكتاب: مطبعة علي موسى ـ حارة حريك

تنضيد الأحرف ـ ماكيت: المركز العربي للمطبوعات

هاتف: ٧٣٩٣٥٣ بيروت ـ لبنان



هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر .
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ .
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُّنّة النبويّة وفقه اللغة .
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر اعجازه .
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع .
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥